

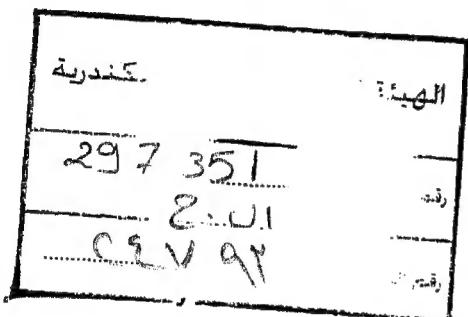
٢٦٧٣٥
جـ ٤
٢.

الجامع الأموي

في دمشق

وصف وتأريخ

بقلم
علي الطنطاوي



دار المنشورة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

جميع الحقوق محفوظة

دار المدار

لنشر والتوزيع
جدة - السعودية

هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢ - تلكس: ٦٠٣٠٦٧ -
ص.ب: ٢١٤٣١/١٢٥٠

مقدمة هذه الطبعة

كتبت مقدمة الطبعة الأولى في دمشق سنة ١٩٦٠ ، ومكتبتي أمامي وأورافي تحت يدي .

وأكتب هذه المقدمة في مكة المكرمة سنة ١٩٨٩ م وقد بَعْدَت المكتبة عنِّي ، وضاعت الأوراق منِّي ، والدرج الذي أودعته أخبار الأموي لم أعد أعرف ما فعل الله به ، ولا بما كان فيه من أوراق ، ولم أعد أستطيع أن أجده .

ومن أين لي أن أعود إلى الكتب التي طالعتها ، والسنين الطويلة التي أمضيتها أتابع أخبار الأموي من صفحات الكتب ومن أفواه العلماء ، وكلما وجدت خبراً نقلته وذكرت من أين أخذته ، أو من سمعته . ولعلها موعظة جاءتني من الله ، إذ آثرت مصلحتي على مصلحة المسلمين ، وضمنتُ بما اهتديت إليه على الناس ، وخفت أن يأخذوا المصادر التي جمعتها ولا ينسبوها إليَّ .. وكنت أهل أن أجعل منها كتاباً كبيراً عن الأموي ، فضاع الأمل . ولم يبق إلا هذا المختصر .

أسأ الله أن ينفع به ، وأن يثبَّت كاته وناشره عليه .

مكة المكرمة

١٤٠٩/٥/٣ هـ

١٩٨٩/١/١ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدَّمَةٌ

الحمد لله ، والصلوة والسلام على محمد بن عبد الله ، وعلى سائر
رسول الله وآبيائه .
اللهم منك العون ، وعليك الاتكال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

وبعد ، فإن من دأبي كلما ازدحمت علي المتابع ، وركبتني
الهموم ، وضاق صدري ، وانقبض قلبي ، أن أمشي حتى أجد مسجداً
خالياً ، فادخله فأصلِّي ركعتين ، وأقعد ،أشعر بسكنى المسجد من
حولي ، وبجلال الحق من فوقِي ، حتى أجد الطمأنينة والرضا ، كأنني
نجوت من البحر الهائج إلى الجزيرة الآمنة ، وتركت الصحراء المحرقَة
إلى الواحة الظليلة ، وكأن ما كنت فيه من المشكلات ، وما كان في صدري
من الهموم ، قد ذهب كله ، لما دخلت حمى الله وصرت في بيته
واعتصمت به من الناس وشُرورهم ، ومن نفسي وسوئها ، ومن الشيطان
ووسواسه .

وإذا كان العرف الدولي على أن بيوت سفراء الدول الأجنبية قطع
من بلادهم ولو كانت في بلاد الناس ، فإن بيت الله رياض من رياض

الجنة، وإن كانت في هذه الدنيا، فمن دخلها كان ضيف الله، وكان جاره. فهي أبواب السماء المفتوحة دائماً إن سُدّت في وجه البائسين اليائسين أبواب الأرض، وهي منار الهدى إن ضل بالسالكين الطريق، وإن كان في الدنيا الخير والشر، فها هنا الخير الذي لا شر معه، وإن كان فيها الحق والباطل، فها هنا الحق الذي لا باطل فيه.

ومن هنا تخرج الكلمة من حلوق المؤذنين، وأفواه الخطباء والمدرسين فتمشي في الفضاء، من فوق رؤوس الملوك والكبار، والأغنياء والأقواء، كلٌ يخضع لها ويصغي إليها، لأنها كلمة الخالق، وإن جاءت على ألسنة ناس من المخلوقين.

هذه قلاع الإيمان في وجه الإلحاد.

هذه حصنون الفضيلة أمام الرذائل والشهوات.

والمسجد هو المعبد في الإسلام، وهو البرلمان، وهو المدرسة، وهو النادي، وهو المحكمة.

هو (المعبد): يدع المسلمين أحقادهم ومطامعهم وشروعهم وفسادهم على الباب، ويدخلون إليه بقلوب مفتوحة للإيمان، متطلعة إلى السماء، متحللة بالخشوع، ثم يقومون صفاً واحداً، يستوي فيه الكبير والصغير، والأمير والحقير، والغني والفقير، أقدامهم متراصة، وأكتافهم متزاحمة، وجماههم جميعاً على الأرض، يستوون في شرف العبودية، وفي شرعة العبادة.

وهو (البرلمان): ما دهى المسلمين أمر، ولا عرض لهم عارض، إلا نودي: «الصلوة جامعة» فاجتمع الشعب في المسجد. ففي المسجد يكون انتخاب الخليفة، وفيه تكون البيعة، وفيه تُبحث القوانين، تستمد من الشرع ثم تعلن فيه على الناس.

وهو (النادي): إن قدم أمير بلداً كان أول ما يدخله من البلد المسجد، على منبره يعلن سياسته، ويدفع منهاجه، وإن كانت حرب، عُقدت الرایات في المسجد، وليس في الإسلام حروب هجومية لمجرد الفتح والاستعمار والكسب، بل فيه الحرب الدفاعية فقط، حرب الدفاع عن العقيدة: أن يمنع أحد مسيرها، وعن أصحابها: أن يحول أحد بينهم وبين قيامهم بفرض الدعوة إليها. إنهم مكلّفون بحمل المصباح الذي أضيء من غار حراء، لينوروا به الدنيا، ويبعدوا به الظلام عن أهلها فإذا انبرى لهم من يحاول إطفاء المصباح، ومن يريده منع نور الله أن يصل إلى عباده، حاربوه حتى يفيء ويرجع، فإن فاء ورجوع إلى الحق كان واحداً منهم، له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن أبي إلا عناداً فحارب فغلب على أمره لم يُكرهوه على الإسلام، ولم يكلّفوه شططاً، ولم يحملوه إلا ضريبة محدودة، هي تكاليف الدفاع الذي يتولّونه هم وحدهم. ضريبة هي أشبه بـ(البدل العسكري)، يدفعه المغلوبون من أموالهم، ويدفع المسلمون الغالبون ضريبة الجهاد من أرواحهم.

والمسجد هو (المدرسة): وفي المساجد وُضعت أسس الثقافة الإسلامية، وفيها ارتفعت ذراها، وشيدت صروحها. وكان يدرس في المسجد كل علم ينفع الناس: من علوم القرآن، وعلوم السنة، وعلوم الشريعة، وعلوم اللسان، وعلوم سنن الله في الأكونان. وكل علم تحتاج إليه الأمة الإسلامية يكون تعلمه فرض كفاية في نظر الإسلام، حتى الكيمياء والفيزياء والرياضيات. ونجد بعد ذلك منْ تبلغ به الجهة أن يَصِّم بالجمود ديناً يجعل تعلم الكيمياء فرضاً كفروض العبادات.

والمسجد هو (المحكمة): وعلى بُسط المساجد وأمام أعمدتها وأساطينها أصدرت أعدل الأحكام وأجرؤها، وفيها سُطّرت أروع صفحات القضاء البشري، ولطالما أقام القضاة فيها الجمال والجمال مع

أمير المؤمنين^(١)، والأجير والفقير مع الأمير الكبير^(٢)، ثم حكموا له عليه، لا يبالون مع الحق صغيراً ولا كبيراً.

وقد تشرفتُ فزرتُ آلافاً من المساجد، في الداني والقاصي من بلاد الإسلام، عامرها ودائرها، فرأيت المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى، والأزهر المعمور، ومسجد أبي حنيفة والجيلاني في بغداد، وابن طولون والمتوكل في القاهرة، سرّ من رأى، وأثار مسجدي الكوفة والبصرة، والمسجدين العظيمين: المسجد الجامع في دهلي، وأثار مسجد قوة الإسلام في دهلي القديمة، ومساجد الملايا وجواوه، فما رأيت فيها كلّها بعد المساجد الثلاثة التي ميزها الله وجعل الصلاة فيها أفضل بدرجات، مسجداً هو أقدم قدماً، وأفخم مظهراً، وأجمل عمارة، وأحلى في العين منظراً، من الجامع الأموي في دمشق.

كان مدرسةً دمشق، فيه الحلقات يدرس فيها كل علم، وكان النادي يجتمع فيه الناس كلما دهم البلد خطب، وكان الأموي في عهد نشأتنا الأولى لبًّ دمشق، فكانت الدار القرية هي القرية من الأموي، والبعيدة هي البعيدة عن الأموي، وكانت الأرض الغالية هي التي جاورت الأموي، وكان الأموي ملعبنا ونحن أطفال، ثم كان مدرستنا الثانية ونحن طلاب، ندخله إذا انتصرنا من المدرسة فنصلّي فيه، ونقف على حلقاته، وما كان يخلو وقت فيه من حلقتين أو أكثر، وكنا نتبوا مقاعدنا في بعضها، نأخذ الفقه والحديث واللغة والنحو، وكنا نؤمّه في عشایا الصيف مع آبائنا، نتخد من صحته متترّها وأنساً، وكنا نؤمّه في

(١) منها دعوى الجمال على أمير المؤمنين المنصور أمام قاضي مكة.

(٢) ومنها دعوى المرأة على عيسى بن موسى أكبر أمراء البيت العباسي ووالى العراق أمام القاضي شريك.

ليالي الشتاء تتخذ من حرمته ملجأً وأمناً، وكان الأموي مثابة النضال الوطني على عهد الانتداب، فيه تلقى الخطب، وفيه تُعد المظاهرات، ومنه تسري روح النضال في الناس، فكان للدين والدنيا، ولل العبادة والعلم، وكل ما فيه رضا الله ونفع الناس، وكذلك يكون المسجد في الإسلام.

وأكثر ما كثر عليه تردادي، واتصل به حبلي، لما كنت في المدرسة الجقمقية، ثم لما صرت من بعد في مكتب عنبر، وأولعت من أيام الجقمقية (سنة ١٩١٩ م) بأن أنقل كل خبر أجده عن الأموي، واستمر ذلك أكثر من أربعين سنة، من تلك الأيام إلى الآن^(١)، فاجتمع لي من الأوراق والجذادات والمذكرات ما يملأ درجاً كبيراً. وكنت كلما عزمت على تصفيته، وإخراجه في كتاب، تعاظماني الأمر فتهيئته، وقد جمعت كل ما وجدته عنه في ابن عساكر، و«الدارس»، و«محاسن الشام»، و«مسالك الأبصار»، و«البداية والنهاية»، و«الروضتين» وذيله، و«شذرات الذهب»، و«معجم البلدان»، و«النجوم الراحلة»، وتاريخ ابن القلانسي، و«السلوك» للمقرizi، وكتب ابن طولون، وما كتبه القاسمي ويدران. ورأيت بعض الرسائل المخطوطة، وكتباً أخرى لا أريد الآن إحصاءها.

وكنت كلما تقادم العهد، ازدادت هذه الأوراق كثرة، وازدادت لها نهيباً، حتى إذا صبح مني العزم قليلاً، استخرجت سلسلة الأحاديث التي كنت حَدَّثت بها من إذاعة دمشق عن الأموي من سنين ثم تركتها، فلما طلبتُ مني المديرية العامة للأوقاف أن أكتب شيئاً عن الأموي، يكون كالدليل للسائح، استخرجت منها هذه الخلاصة التي أقدمها اليوم، ولم

(١) أي إلى وقت كتابة هذه الفصول.

أغْرِيَ كُلَّ خبرٍ فيه اعتماداً على أنني سأخرج إن شاء الله الكتاب الكبير عن
الأموي وكلُّ خبرٍ فيه معزوٌ إلى مصدره، ولأنني حربت في كتابي عن أبي
بكر وعمر أن أذكر كلَّ مصدر، وأعین الطبعة من الكتاب والجزء
والصفحة، فأخذت ناساً من (أكبين) كُتابنا ومؤلفينا ما فيهما ولم يُشيرا
إليهما، وادعيا أنهم أخذوا من الأصول التي نقلت منها.

وأنا أسأل الله التوفيق، وأن يجعلنا من المخلصين.

دمشق: ٤ رمضان ١٣٧٩

١٩٦٠ آذار

علي الطنطاوي

* * *

حياة الأموي

لكل موجود إن حَقَّقَتْ حياة: الجبال والأنهار، والمدن والمعمار، كلها حية تولد وتموت، وتشبّه وتهزم، وتصحّ وتمرّض.

هذا الأموي الذي جئتُ أعرض عليكم خطوطاً من صورته، وملامح من تاريخه، له حياة طويلة، ولحياته تاريخ طويل.

تاريخ لا يدرى إلا ببعضه التاريخ، لأن الأموي ولد قبل أن يُكتب التاريخ.

لا نعرف ولا يعرف أحدٌ مِنْ الذي وضع الحجر الأول فيه، ولا متى شُيّد.

صارع النار والدمار، وثبت على الأدوار والأعصار، تكسّرت على جدرانه موجات القرون كما تتكسّر الأمواج على صخرة الشاطئ، ثم ترتد عنه ميتة وهو حي قائم.

ذهبت أمية بمالها وسلطانها، ولبث وحده يخلد في الدنيا اسم أمية، فكان أبقى من كل ما نالت أمية من مال ومن سلطان.

كان معبداً من أكثر من ثلاثة آلاف سنة، تداولته أيدي اليونان والرومان وأقوام كانوا قبلهم، ثم صار للمسيح، ثم انتهى لمحمد.

كنيسة صارت إلى مسجد هدية السيد للسيد^(١)
صلى الله على سيدنا المسيح وعلى سيدنا محمد خاتم الأنبياء
الذي نسخت شريعته الشرائع وعلى كلنبي أرسله الله بالهدى والتوحيد
والدين القائم، لا نفرق بين أحدٍ من رسله، نؤمن بكلنبي بعثه الله على
ما بعث عليه، وكلكتاب أنزله الله على ما نزل عليه، ونقول: كل من
عند ربنا ونحن له مسلمون.

* * *

ولد المسجد ليلة الفتح، حين شرف الله الشام وأراد لها الخير،
فاستظللت برأية القرآن، واتبعت داعي الله وسلكت الطريق الموصى
(إن شاء الله) إلى الجنة، ثم شبّ واكتهل، ونما واكتمل، على عهد
الوليد، يوم كانت دمشق تمرح في جنة من غرس محمد، وتنعم هانئةً
بالأمن والرخاء في قييء الصرح الذي شاده محمد صلى الله وسلم على
محمد حين كانت الليالي أعراساً، والأيام أفراحًا، والدنيا ترقص ابتهاجاً
وتميس من السرور.

هنا لك كان الأموي يتبوأ في دمشق سدة ملك، قد لبس
الفسيفساء، وتحلى بالذهب، وتسربل بستر الوشي والديجاج، وتأه على
كل بناء في الأرض.

ثم أراه الزمان من حلوه ومروه، ومن نعيمه وبؤسه ما يُري كلَّ
(حي) في الوجود.

ولست أستطيع أن أعرض عليكم تاريخ الأموي، يوماً بيوم، فلقد
كانت تعاوره الأيدي دائمًا: أيدي المصائب والبغاء، بالخراب والدمار،
وأيدي المصلحين بالعمارة والإصلاح، حتى غدا وفي كل شبر منه

(١) البيت لشوفي.

تاريخ ، وصار كفسيفسائه ، كل قطعة منه من طبيعة ومن لون ، ولكل يوم من حياته الطويلة قصة ! .

ومن كانت له دار يسكنها هو ، وسكنها أبوه من قبله خمسين سنة ، يتعهد بها فيها بالإصلاح والتتجدد ، لم يستطع أن يحدد تاريخ كل باب فيها وكل جدار ، فكيف بالأموي وهو من ألف وثلاثمائة سنة عرضة للإصلاح والتتجدد .

بقي الأموي على صفته الأولى (التي استقرّونها بعد صفحات) أو على قريب منها نحوً من أربعين سنة ، أي إلى سنة ٤٦١ حين نشب فيه الحريق العظيم ، فنسخ آياتِ حُسْنِه ، وطمس وجه جماله ، وصيّرَه تللاً من التراب ، وبقي على ذلك أربع عشرة سنة إلى سنة ٤٧٥ حين جدد بأمر ملكشاه السلاجوفي .

ثم تالت عليه الزلازل والحرائق على ما سيأتي تفصيله ، ولم يكن عمل البشر في صحن المسجد أقل من عمل الطبيعة^(١) ، فلقد انتابه الإهمال مرة حتى صار كأنه خان أو فندق ، وأمتلأ صاحنه باللاجئين والمقيمين ، وصار الرجل يجد لنفسه موضعًا فيه يضع فيه حاجاته وصندوقه ، ويقيم لنفسه مقصورةً أو كوخاً ، ويستقر فيه ، وبلغ ما فيه من هذه المعاشير أكثر من ثلاثة ، واتخذ فيه الأمراء حواصل ومستودعات ، وبقي ذلك مدة لا يُعرف مقدارها حتى جاء الملك الظاهر ، فكان من بداية إصلاحاته أن طرد هؤلاء الناس ، ونظفَه وغسلَ رخمه ، وفرشه وأعاده مسجداً للعبادة والعلم .

وعبث به التتر والمغول مرتين ، مرة في أواخر القرن السابع

(١) الطبيعة (فعيلة) بمعنى مفعولة ، والذي طبعها وأجرها على سنتها والله خالق كل شيء .

الهجري ، إذ عَطَّلُوه واتخذوه معسِّكراً لهم ، ونصبوا فيه المنجنيقات لرمي القلعة ، وارتكبوا فيه أنواع الإثم والفساد .

ومرة على عهد تيمورلنك الذي أساء إلى دمشق إساءة لم يأت مثلها أحد .

ثم كان الحريق الأخير سنة ١٣١١ الذي ذهب بالمسجد كله (أي الحرم) ، وجدده أهل الشام . وفيما يلي من الفصول بعض التفصيل لهذا الإجمال .

* * *

جولة في الأموي

تعالوا، أولاً، نلم بالمسجد كله بنظرة واحدة، أكون أنا فيها دليلكم، أصفه لكم بإجمال وإيجاز، ثم أعود في الفصول التالية، فأفضل ما أجملته، وأسهب فيما أوجزته.

السور والدهاليز:

نحن الآن في باب البريد، أترون هذه القنطرة وهذه الأعمدة الكبار؟ هذه بقايا أعمدة السور الخارجي للمعبد، والكتابات التي تبدو عليها كتابات محدثة من عهد المماليك.

أما قناطر السور الداخلي، فترون بقايا ركائزها لاصقات بالجدران على طرفي باب المسجد.

وكان لكل باب من الأبواب الأربع دهليز، وأعظمها دهليز الباب الشرقي، ثم الباب الغربي (وهو هذا)، ثم الباب الشمالي، ولا تزال آثار ذلك كله واضحة، ولا تزال بقايا أعمدة الدهليز الشرقي وأعمدته الكبار مائلة قد غطّتها الدكاين.

وقد بقيت هذه الدهاليز إلى القرن السادس، وترون وصفها فيما كتبه ابن جبير وأثبناه في آخر هذا البحث.

مداخل الأموي:

وهذه الدكاين التي تشوّه منظر الجامع في السوق الضيق من هنا^(١)،

(١) سمعت (وأنا مقيم في مكة من ست وعشرين سنة) أنها أزيلت، وكشفت جدران المسجد.

وفي القباقبية من هناك، كان الأمراء يمنعون أمثالها حرمة للأموي، وقد صدر الأمر سنة ٦٤٧ هـ بهدمها كلها. وكانت عناليتهم بداخل الأموي وما حوله كعناليتهم به نفسه، ففي سنة ٦١٠ أمر الملك العادل بوضع سلاسل في أيام الجمعة على الطريق المؤدية إلى الجامع كيلا تصل الدواب إليه، كالسلسلة الممدودة الآن على مدخل سوق الحميدية، في موضع باب النصر الذي كان أحد أبواب دمشق^(١).

وفي سنة ٦٦٣ بلط الطريق من باب الجامع إلى القناة التي كانت عند درجات المسكية التي أزيلت من أكثر من خمسين سنة ونحن نعرفها، وعمل إلى جانبها القبلي بركة واشنروان (الشاذروان معناه عندهم لسان من البناء يتدفق منه الماء أو نحو ذلك، ولا يزال يستعمل بهذا المعنى في الحجاز. والكلمة فارسية الأصل)، وغطيت الساقية التي كانت هناك، وجعل للبركة أنابيب يجري فيها الماء إلى الجهة المقابلة، وسحب ما منها من نهر قنوات لينتفع بها الناس عند انقطاع ماء نهر باناس (بانايس).

ولقد خبرني ناظر الجامع الشيخ حمدي الحلبي أن تلك الساقية لا تزال موجودة ولكنها مغطاة وهي تمر تحت بيت الخطابة.

النوفرة:

وكان من عناليتهم بتجميل مداخل الأموي، أن أقيمت الفواردة (النوفرة) أسفل درج المسجد عند باب جيرون. وقد أنشئت سنة ٤١٦ وجر إليها الماء من نهر قنوات ظاهر قصر حجاج (نسبة للحجاج بن الوليد بن عبد الملك)، فوصل إليها الماء ليلة الجمعة ٧ ربيع الأول

(١) رأى ابن جبير وذكره في رحلته وانذر من عهد بعيد. ومن المصادرات غير المقصودة أن سُمي الشارع المقابل له بشارع النصر وهو أول شارع حديث في دمشق فتحه جمال باشا سنة ١٩١٦ وكان يسمى باسمه.

٤١٧، وكان القائم بإنشائها القاضي حمزة الحسيني ناظر الجامع.
وسقطت سنة ٤٥٧ من جمال احتكّت بها فأعيد إنشاؤها. ثم
سقطت عمدها وما عليها في حريق اللبادين (النوفرة) وياب الساعات في
سنة ٥٦١، وكان حريقاً عظيماً. وأعيد بناؤها.

وفي سنة ٥١٤ أقيمت عليها شاذروان.

وفي سنة ٦٠٧ تخرّب فأصلحت، وجُدد الشاذروان والبركة،
ويني أمامها المسجد وجعل له إمام راتب.

وفي سنة ٨١٤ بيض شاذروان الفوار، وأعيد جري الماء فيها
بعدما انقطع أمداً.

أبواب الأموي:

وللمسجد ستة أبواب.

هذا الباب الذي تقف عليه الآن وهو باب البريد، وهو كما ترون ثلاثة أبواب، باب كبير في الوسط، وبابان على جنبيه، وكان ثالثي البابين الرئيسيين لل侖عبد.

أما الباب الرئيسي الأول فهو باب جিرون المقابل له، وُعرف بعد القرن الخامس بباب الساعات وبباب اللبادين، وهو مثله في ثلاثة أبواب ويسمى الآن بباب التوفة، وقوسه لا يزال كما كان من القديم. وقد بقي باب المعبد الأصلي وهو من خشب الصنوبر البالغ المتأنة، وكان مصفحاً بالنحاس، له مامير كبار بارزة إلى حريق سنة ٧٥٣ فتشوه وأثر فيه الحريق فُنقل إلى خزانة الحاصل (أي إلى المستودع) ثم فقد. وقدر المؤرخون عمر هذا الباب حين الحريق بأكثر من ألف سنة.

ثم الباب المسدود الآن وهو وراء المحراب وله باب كبير في الوسط وصغيران على الجانبين وكان يدخل معاوية والخلفاء من

الأوسط، فلما بني الوليد المسجد وأزال الكنيسة صار الخلفاء يدخلون من الباب الأصغر على يسار المحراب.

والباب القبلي هو الذي كان يُعرف بباب الزيادة، وكان يسمى باب الساعات، ثم انتقل هذا الاسم إلى باب جيرون لأن الساعات نقلت إليه، ويسمى الآن بباب القوافين.

وباب الناطفانيين وهو باب الفراديس ويسمى الآن باب العمارة.

والباب المحدث إلى مدرسة الكلافة.

وفي سنة ٦٠٧ جُدد باب البريد (أي الأبواب الثلاثة) وركبت عليها صفائح النحاس الأصفر. وجدهه الملك الظاهر كذلك سنة ٦٧٣.

وفي سنة ٧١٩ حلّت الأبواب وحسّنت، كان قد سُدَّ البابان الصغيران من الباب الشرقي (باب جيرون) بعد حادثة تيمورلنك، وبنى دكاكين في رحبة الجامع فهُدمت أول سنة ٨٢٠، ورُكِّبَ البابان الصغيران الغربيان سنة ٨١٩، والبابان الشرقيان سنة ٨٢٠، وقد جُددت صفائح النحاس على الأبواب حديثاً^(١).

خلع النعال:
ولنخلع الآن النعال ولندخل.

وكان الدخول إلى المساجد في أول الإسلام بالنعال، لأن الأرض في الحجاز جافة والمساجد غير مفروشة، وكذلك كان يدخل إلى صحن الأموي، كما يظهر، وفي ربيع الآخر سنة ٨٢٧ فُوضِّن النظر على الجامع إلى إمامه الحنفي، وهو رجل مصرى يقال له تقى الدين العمادى، فالزم الناس ألا يمشوا في الصحن إلا حفاة، فشق ذلك عليهم، ولكنه أصرَّ

(١) انظر الفصل الملحق بهذا الكتاب.

و عمل على الأبواب درابزينات^(١) و حواجز لخلع النعال و يقي ذلك إلى
شوال من تلك السنة، ثم عزل العمادي، و عاد الناس إلى ما كانوا عليه.

وفي سنة ٧٢٢ لما جدد المسجد بعد حادثة التتار، منع ناظر
الجامع ابن المرحل (وهو محمد بن عمر العثماني) الدخول بالنعال،
بأمر نائب الشام تنكر.

وفي شعبان سنة ٨١٦ سمح بالمشي فيه بالنعال، ثم منع ذلك في
وقت من الأوقات، واستمر المنع إلى الآن.

* * *

(١) كلمة (درابزين) معرّبة من قديم، ولا تزال مستعملة عند أهل الشام إلى الآن.



في صحن الأموي

لقد دخلنا من باب البريد، نحن بين بابين على اليمين وعلى اليسار، لندخل من اليسار، هذه القاعة الكبيرة التي اتخذتها دائرة الأوقاف للاستقبال هي مشهد عثمان.

والمشاهد مساجد صغيرة ملحقة بالجامع، كان لكل منها إمام خاص.

فإذا خرجنا منه، وجدنا بعده باباً لغرفة واسعة، وكانت تسمى قديماً بيت الزيت الغربي، وكانت (كما هي اليوم) مستودعاً للمسجد. فإذا صرنا في زاوية الرواق، وجدنا آثار غرفة، كانت هناك قديماً هي زاوية الغزالى لأنه نزل بها، وهي في الأصل أساس الصومعة الغربية التي أزيلت هي والشرقية المقابلة لها قبل الفتح الإسلامي.

وهذا الباب الصغير المفتوح في شمال المسجد، هو باب مدرسة الكلّاسة التي أنشأها نور الدين سنة ٥٥٥، ثم احترقت هي ومنارة العروس بعد إنشائها بأمد يسير، فجذّدها صلاح الدين هي والمنارة، وهذه هي المنارة الرئيسية اليوم، وفيها أذان الجمعة الذي أحدث في عصور متاخرة. ذلك لأنها تطل على صحن المسجد، وفيها الآلة الفلكية التي تسمى البسيط، والبسط الذي كان فيها من صنع ابن الشاطر رئيس المؤذنين بالجامع في القرن الثامن، ثم انكسر بيد جدنا الشيخ محمد

الطنطاوي المتوفى سنة ١٣٠٤، فصنع البسيط الموضوع الآن، ويقول الشيخ الخاني في كتابه «الحدائق»: إنه جاء أكمل من الأول إذ زاد فيه قوس الباقي للفجر^(١).

وبعد المئارة باب الفراديس، ثم الخانقة (وأصلها خانه قاه أي دار العبادة) السمياسطية، بناها السمياسطي المتوفى سنة ٥٣٤ وكانت في الأصل دار عمر بن عبد العزيز، ثم نوافذ التربة الكاملية التي دُفِنَ فيها الملك الكامل الأيوبي، ثم مشهد زين العابدين المعروف اليوم بمشهد الحسين، في شرقى الصحن، وفيه الآن القبر المشهور أن فيه رأس الحسين، وفي المسجد الملاصق للأزهر في مصر قبر آخر لرأس الحسين. ولابن تيمية رسالة في تحقيق مدفن الرأس مطبوعة معروفة، ينفي بها أن يكون الرأس في مصر.

ثم باب جيرون.

الباب:
وفي الصحن ثلاثة باب.

أولاًها: القبة الغربية (قبة المال)، أنشأها الفضل بن صالح بن علي العباسي (ابن عم المنصور)، لما كان أمير دمشق سنة ١٧١ أيام المهدي، ويظهر أنها كانت مغلقة، والناس يتوهّمون أن فيها مالاً، ولم أجد خبراً لفتحها إلا ما كان سنة ٩٢٢ هـ إذ فتحها (سيباعي) فلم يجد

(١) وقال في «منادمة الأطلال»:

وقد بقي البسيط الذي صنعه ابن الشاطر إلى سنة ١٢٩٠ هـ وكان شيخنا الشيخ محمد الشهير بالطنطاوي إماماً في فن الهيئة والمعينات في دمشق، فرأى قد احتل لمورون السنيين فجاء يحررها فانكسر فصنع غيره ولكنه رسمه على الأفق الحقيقي، وقد حصل له معاكسات من أهل دمشق ووجهه بعض ذوي الخلاعة والعقل المنحرف. ثم إنه رسم آخر على الأفق المرئي ووضعه في جامع الدقاق في الميدان.

فيها إلا أوراقاً ومصاحف بالخط الكوفي، وقد فتحت في سنة ١٣٠٦ فوجدت فيها مصاحف ومحظوظات نقلت إلى إسطنبول.

ثانيتها: القبة الشرقية، بُنيت كذلك أيام المهدى سنة ١٦٠ وتُعرف بقبة زين العابدين، وكانت تُسمى قبة يزيد، وتُسمى الآن قبة الساعات إذ كانت فيها ساعات المسجد.

والثالثة: القبة التي على بركة الماء، وقد كانت من الرخام، وأقيمت سنة ٣٦٩^(١)، وكان لها أنابيب من نحاس قيل في وصفها:

فوارة كلما فارت فرت كبدي ومازها فاض بالأنفاس فاندعا
كأنها الكعبة العظمى فكل فتي من حيث قابل أنبوياً لها ركعا
وسمعت أنها أزيلت الآن.

البلاط:

كانت أرض الصحن كلها مغطاة بفصوص الفسيفساء، لم يكن فيه بلاط، وبقي ذلك إلى حريق سنة ٤٦١، فذهب كله وصارت أرضه طيناً في الشتاء وغباراً في الصيف مهجورة، وبقيت كذلك إلى شعبان سنة ٦٠٢، فهدمت القنطرة الرومانية عند الباب الشرقي، ونشرت حجارتها، وبدىء بتبيط صحن الجامع الأموي على عهد الوزير صفوي الدين وزير العادل، وكمل تبليطه سنة ٦٠٤، وذلك أنهم لما أرادوا فتح نوافذ للتربة الكاملية المحدثة على الجامع، لم يمكنوهم من ذلك إلا بشرط تبليطه.

وفي سنة ٦١١ جدد بلاط أرض الجامع من الداخل، بعدما صارت حفراً و(جُوراً)، وتم سنة ٦١٤، ووضع متولي دمشق مبارز الدين إبراهيم (المتوفى سنة ٦٢٣) آخر بلاطة بيده، وكانت عند باب الزيادة، وكان ذلك على عهد الملك العادل.

(١) وفي «منادمة الأطلال» ٣٩٦.

وكان الملك الظاهر قد أصلاح في الجامع إصلاحات كثيرة، منها أنه فرش باب البريد بالبلاط نحو سنة ٦٧٠ هـ، أما البلاط الحالي فقد رصف نحو سنة ١٣٠٠، على عهد الناظر الشيخ أحمد الحلبي، وقد تكسر من إلقاء الأعمدة عليه عند عمارة المسجد بعد الحريق الأخير.

ومستوى أرض الجامع اليوم أعلى من أرضه على عهد الوليد. وتبين من حفريات مهندس الأوقاف^(١) من أمد قريب، حول قبة المال، أن قواعد الأعمدة على عمق ثلاثة أمتار^(٢)، والقبة بُنيت أيام المهدي العباسى، وأخبرنى جار الجامع الشيخ عبد القادر العانى أنه رأى عند الحفر لتجديد الحائط قطعة من أرض الجامع الأصلية معطاة بفصوص على شكل الفسيفساء على عمق مترين ونصف، ولكن هذه الفصوص أكبر من فصوص فسيفساء الجدران.

وأقدم قطعة من البلاط اليوم هي التي أمام العمود الرابع من الرواق الغربى، وفيها حجران كبيران يظهر أنهما من القنطرة التي هدمت لرصف الجامع بالبلاط سنة ٦٠٢.

* * *

(١) إيكوشار.

(٢) أما أرض الجامع فالغالب أنها كانت تحت الأرض الحالية بنحو نصف متر فقط.

في الحرم

فلندخل الآن إلى الحرم^(١). إن هذه الأبواب المتصلة المفضية إلى الحرم، لم يكن لها في الأصل مصاريع، وإنما كانت عليها الستر إلى حريق سنة ٤٦١. فإذا دخلنا، وجدنا إلى اليسار مشهد أبي بكر، المعروف الآن بمشهد السفرجلاني، ثم مدخل المنارة الشرقية، ثم المحراب المالكي، وهو المحراب الأصلي للمسجد قبل أن يبنيه الوليد، وكان يسمى محراب الصحابة^(٢)، وأنشئ المحراب الكبير عند عمارة الوليد وجعل للخطيب.

في سنة ٦١٧ نصب محراب الحنابلة بالرواق الثالث الغربي (قرب البئر) أي وراء الصف الثالث من الأعمدة، وقد عارض في نصبه بعض الناس، ولكن ركن الدين المعظمي قام بنصرة الحنابلة، وصلى فيه الموفق ابن قدامة المقدسي، ثم رفع في حدود سنة ٧٣٠، وعوّضوا عنه بالمحراب الغربي عند باب الزيادة، وهو باقٍ إلى اليوم.

و عمل محراب الشافعي الآن سنة ٧٢٨ بأمر تنكز، وخصص بالحنفية، وصارت المحاريب أربعة: محراب الخطيب، ومحراب الحنفي (وهو الشافعي الآن)، والماليكي، والحنيلي.

(١) نحن نسمّي المسقوف من المسجد حراماً، أما الحرم بمعناه الشرعي فلا يطلق إلا على حرميّة مكة والمدينة.

(٢) والمحاريب لم تكن على عهد الرسول ﷺ وهي مما أحدث.

وكانوا قبل سنة ٦٩٤ يصلون في وقت واحد، ثم رُسم للحنابلة أن يصلوا قبل الإمام الكبير، وفي سنة ٨١٩ انتقل الإمام الأول من محراب المالكية إلى محراب الحنفية (وهو الشافعي الآن). ثم استقرت الحال على أن أول من يصل إلى إمام الكلسة، ثم إمام مشهد الحسين، ثم الشافعي، ثم المالكي، ثم الحنبلي، ثم إمام مشهد أبي بكر، ثم إمام مشهد عروة، ثم إمام مشهد عثمان. ثم اقتصر الأمر على أئمة المسجد الأربع. والعمل على ذلك إلى الآن بهذا الترتيب، أي الشافعي فالحنفي فالمالكي فالحنبلي^(١).

القبر:

أما القبر فقد نقل ابن عساكر أنهم رأوا عند عمارة المسجد مغارة، فخبروا بها الوليد، فنزل إليها والشروع بين يديه فوجد كنيسة صغيرة، ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع، فيها صندوق فيه سقط (قفنة) فيه رأس، سليم الجلدة والشعر، مكتوب عليه أنه رأس يحيى بن زكريا، فأمر بتركه على حاله، وجعل للعمود القائم على المغارة علامه تميّزه، وبقي كذلك فترة ثم وضع فوقه تابوت عليه اسم يحيى، رآه ووصفه (كما سيأتي) ابن جبير في أواخر القرن السادس الهجري، وبقي ذلك إلى تاريخ رحلة ابن بطوطة، ثم أقيمت هذه القبة في وقت لم أقف على تحديده إلى الآن.

ولم يتخد الوليد عليه قبراً، لأنه لم يثبت عنده أن الرأس ليحيى، ولأن إقامة القبور في المساجد أو بناء المساجد عليها ممنوع في الإسلام، والرسول ﷺ حذر منه ولعن فاعله، وكان ذلك من آخر ما نطق به ﷺ قبل وفاته^(٢).

(١) الصحيح من السنة أنه لا يجوز تكرار الجمعة في مسجد له إمام راتب. وعلى ذلك مذهب الحنفية (الحاشية: ٢٦٥/١ - ٣٧١/١).

(٢) وفي كتب الحنفية المنع من ذلك (الحاشية: ٦٠١/١، و«الهندية»: ١٦٦/٥).

ولا يُحتاج لجواز اتخاذ القبور مساجد بقبره عليه السلام، فإن قبره لم يكن في المسجد، بل كان في داره، فلما دخلت الدار في المسجد عند التوسيعة^(١)، صار فيه. وقد نص الحنفية أن من آداب زيارة قبره عليه السلام لا يستقبل الزائر القبر بل يقف بحذاء رأسه الشريف ويصلّي عليه ويدعوه، وهو مستقبل القبلة^(٢). مع أن الثابت من تاريخ سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام، وهو الذي يسميه النصارى (يوحنا المعمدان) أنه كان على عهد المسيح عليه السلام، وأن الإمبراطور الروماني أمر بقتله وسلم رأسه إلى (تلك) الراقصة الفاجرة، فعَبَثَتْ به ولم يُعلم مصيره، فهو قد قُتل في الأردن، قبل عمارة الأموي بنحو ستمائة سنة، فمن أين وصل الرأس إلى هذه المغارة؟ وكيف قطع هذه المسافة على الأرض، وهذه المسافة في الزمان، ثم استقر سليماً في هذا السقط؟.

أما تسمية الكنيسة بمار يوحنا فلا يدل على شيء، لأن عند المسيحيين أكثر من عشرين كنيسة، في كل منها قبر ليحيى عليه السلام^(٣). هذا وعندهم أكثر من عشرين قديساً باسم (مار يوحنا). فمن قال بأن الاسم المقصود هنا هو ليوحنا المعمدان؟.

وعلى فرض صحة الخبر الذي رواه ابن عساكر، فإنه لا يثبت إلا أنهم وجدوا رأساً عليه اسم يحيى لا يعرف من كتبه ولا تاريخ كتابته، وليس لدينا أي دليل على أن هذا القبر هو ليحيى، وليس لدينا دليل كذلك على نفي أن فيه رأس يحيى عليه السلام. فالله أعلم بحقيقة الحال.

وراء المحراب والمنبر، الباب الذي سُدَّ من قديم، ويدوأعلاه

(١) انظر كتابي «من نفحات الحرم».

(٢) «الهندية» حازياً إلى «الاختيار شرح المختار».

(٣) وفي قرية سبسطيا قرب نابلس حيث قُتل، قبر له يقدسه النصارى.

الآن للمار من القباقبية، ظاهراً من وراء الدكاين.

وكان بعد المنبر مقصورة الخطابة، ثم بيت الخطابة، وهي موجودة، ثم محراب الشافعي، ثم باب الزيادة، ثم محراب الحنبلي في موضع المقصورة المسماة بمقصورة الخضر، ثم قاعة الحنابلة، ثم المئذنة الغربية، ثم مشهد عروة (أو ابن عروة) على جانب باب البريد الأيمن للداخل.

* * *

عمارة الأموي

عمارة المساجد من هدي الأنبياء وسنت المؤمنين، وقد بني إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام الكعبة، البيت الحرام، وكان أول ما صنعه الرسول ﷺ بعد الهجرة، هو بناء مسجد المدينة. وإن كانت عمارة المساجد بالعبادة والعلم والإيمان مقدمة على تثبيت الأركان، وتعلية الجدران، والإكثار من الزخارف والألوان، بل إن زخرفة المساجد والزيادة في عمارتها على حد الضرورة مما كرهه الإسلام ورغم عنه السلف الصالح.

وقد نص الحنفية على أن الكتابة على جدرانها، ولا سيما في القبلة، لا تستحسن^(١).

وكان هذا المسجد في الأصل معبداً وثنياً، فأخذه النصارى فصيّروه كنيسة، فلما كان الفتح الإسلامي ودخل خالد عنوة من جهة الباب الشرقي، ودخل أبو عبيدة صلحًا من جهة باب الجابية، تم الاتفاق على أن تقسم الكنيسة قسمين، ما كان منها في الأرض التي وصل إليها أبو عبيدة صلحًا بقيت كنيسة، وما كان منها فيما فُتح عنوة صار مسجداً. وكانت هذه قوانين الحرب المتعارفة، وكان للظافر أن يمتلك المرافق

(١) «البازية» - على هامش «الهندي» - : ٣٧٠ / ٦.

العامة فيما فتحه بالسيف، وبذلك القانون أخذ النصارى هذا المعبد الوثني من قبل وصيروه كنيسة.

وكان المسجد في أقل من نصف مساحته الآن (أي من باب التوفة إلى ما قبل القبة)، وكان له محراب واحد هو محراب المالكية اليوم.

واستمرت الحال على ذلك إلى أيام الوليد، فكان النصارى يصلون فيؤذن المسلمين فيزعجونهم، ويصللي المسلمين فيضرب النصارى النواقيس. وضاق المسجد بأهله، وأراد الوليد أن يضم الكنيسة إلى المسجد، وكان الوليد هو الحاكم المطلق في نحو عشرين دولة من دول اليوم، هي: الجمهورية العربية المتحدة والعراق والأردن وفلسطين والجaz واليمن وتركيا وليبيا وتونس ومراكش والجزائر وإسبانيا والحبشة وإيران والأفغان وجمهوريات أرمينية وبخاري وتركتستان وقسم من باكستان. ولكنه كان مع هذا السلطان مقيداً بقيد القرآن، والقرآن والسنة يحرّمان ظلم المواطن الذمي، أي المواطن المسيحي بعرف الناس اليوم، ولا يجوز التعدي عليه ما لم ينقض هو العهد، لذلك لم يقدر أن يُصدر أمراً بأخذ الكنيسة جبراً، فدعا رؤوس النصارى وعرض عليهم أن يعطوه بقية الكنيسة وبيني لهم بدلاً منها كنيسةً أعظم منها، فأبوا، فعرض عليهم أن بيني لهم أربع كنائس ويعطiem مبالغ ضخمة من المال، فأبوا وقالوا: إننا نتمسك بالعهد الذي كان بيننا وبينكم. فقال لهم: أنتم خالفتم العهد وأحدثتم كنائس جديدة لم يكن في المعاهدة بناؤها فأننا أهدمها.

وعزم على ذلك، ودخل عليه أخوه المغيرة فوجده مهموماً فقال: مالك يا أمير المؤمنين؟

فخبره، فقال: أخرج العهد فأنظره. فأخرجه فنظر فيه، فإذا

القسم المفتوح عنوة، يمتد إلى آخر الكنيسة ويدرك تكون كلها حقاً لل المسلمين، فألف لجنة مشتركة (إسلامية ونصرانية) فقامت بمسح ذلك، فظهر بالمساحة أن الكنيسة كلها من حق المسلمين، وأنها تدخل المسجد.

قالوا: يا أمير المؤمنين، كنت أقطعتنا أربع كنائس، وعرضت علينا من المال كذا وكذا، فإن رأيتي أن تفضل به علينا. فامتنع أولاً، ثم أعطاهن الكنائس الأربع، وبين لهم كنيسة مار يوحنا الكبرى. أي إن الدولة الإسلامية، في أقوى عصورها، تبني للنصارى الكنائس من مالها، ثم يتذرع المستعمرون بالخوف على النصارى في بلادنا من حكم الإسلام! .

وقالوا: إن من يهدم الكنيسة يجّن. فأخذ الوليد المعول وقال: أنا أحب أن أجّن في سبيل الله، وضرب به وتبعه الناس، ثم دعوا باليهود فأكملوا هدمها^(١)، ولم يبق في المسجد من الكنيسة إلا الجدران وأساس الصومعتين الإماميتين. على أن صاحب «معجم البلدان» يروي أنه نقض الحيطان وأعاد بناءها على أساس جديد حفر له حتى بلغ الماء.

وسمع إمبراطور القسطنطينية بذلك، فأراد أن يصرفه عن عمارة المسجد، فكتب إليه: إن كان هدم الكنيسة حقاً وصلاحاً، ولم يفعله أبوك، إنه لوصمة عليك. ولما ورد الكتاب على الوليد، قعد يفكّر في جوابه، فدخل عليه الفرزدق الشاعر فقال له: جوابه حاضر، وهو قوله تعالى: ﴿فَهَمَنَاهَا سُلَيْمَانٌ وَكَلَّا آتَيْنَا حِكْمًا وَعِلْمًا﴾.

* * *

وحشد لبناءه العمال من كل مكان وأراد أن يقيم السقف على أسطوانات (أعمدة)، فاقتصر عليه بناء شامي أن يقصر الأعمدة، ويعقد

(١) لا حجاً بال المسلمين، بل كرهاً للنصارى.

بعضها بأقواس، ويقيم فوقها أعمدة صغاراً، لها قناطر تحمل السقف،
فচنعن ذلك وبقي إلى يومنا هذا.

هندسة الأموي:

وكانت هندسته مبتكرة، شهد بذلك كل من رأه من قديم وحديث
من المسلمين وغير المسلمين.

من ذلك أن المهدي لما قدم الشام في طريقه إلى بيت المقدس،
دخل مسجد دمشق، ومعه كاتبه أبو عبيد الله الأشعري، فقال له: يا أبا
عبيد الله، سبقنا بنو أمية بثلاث.

قال: وما هن يا أمير المؤمنين؟.

- قال: هذا البيت (يعني المسجد)، ونبيل الموالى، فإن لهم
موالى ليس لنا مثلهم، وعمر بن عبد العزيز لا يكون فيما مثله أبداً.
ولما وصل إلى بيت المقدس ورأى قبة الصخرة، قال: يا أبا عبيد
الله، وهذه رابعة.

ولما دخل الأمون مسجد دمشق، ومعه المعتصم ويزحيى بن
أكثم، قال لهما:

- ما أعجب ما في هذا المسجد؟.

- قال المعتصم: ذهب ويقاوه فإذا نجعله في قصورنا فلا تمضي
عليه العشرون سنة حتى يتغير.

- قال: ما ذاك الذي أعجبني منه.

- قال يحيى: تأليف رحامة، فإني رأيت شيئاً ما رأيت مثله.

- قال: ما ذاك الذي أعجبني منه.

- قالا: وما الذي أعجبك؟.

- قال: بنيانه على غير مثال متقدم.

ووصفه أحد الكتاب، وكان قدم دمشق سنة ٤٣٢ هـ، بأنه بكر الدهر، ونادرة الوقت، وأن أمية أبقيت به ذكرًا لا ينقطع. وقال صديقنا الدكتور صلاح المنجد^(١) بأن المستشرقين العارفين بالآثار مُقررون بأن تخطيط المسجد وهندسته شيء مبتكر، لا يشبه هندسة الكنائس البيزنطية، وأن كثيراً منها يخرج عن طريقة العمارة السورية النصرانية المتوارثة.

بناء القبة:

ولما أقيمت هيكل البناء عمد الوليد إلى رفع القبة، وأرادها سامقة بأسقة، فلما تمت سقطت، فشق ذلك على الوليد فجاءه بناء شامي، فقال: أنا أرفعها بشرط. قال: وما هو؟ قال: أن تُعطوني عهد الله ألا يمد أحد غيري يده إلى بناها. قال: لك ذلك.

فحضر حتى بلغ الماء، ثم وضع الأساس وغطاه بالحصار، وانتفى، وطلبوه سنة كاملة فلم يصلوا إليه، فلما كان بعد السنة جاء، فقال له الوليد: ما دعاك إلى ما صنعت؟ فقال: تخرج معى حتى أريك. فخرج والناس معه، حتى كشف الحصار، فوجد البناء قد انحط ونزل قليلاً. قال: من هنا كان سقوطها، فإنما الآن فإنها لا تهوي إن شاء الله. وبينى واستقرت القبة.

هدية اليهودية:

وعزم على أن يغطي القبة بالذهب، فنهاه العقلاء وأرروه أن ذلك يستفرغ خزائن من المال، ولا ينفع شيئاً فأمر أن تغطى بالرصاص.

(١) في «مسجد دمشق» وهو نص ثمين في ذكر شيء مما استقر عليه المسجد إلى سنة ٧٣٠ هـ. وكل ما في هذا النص موجود بعبارة أو بأكثر تفصيلاً في ذيل «الدارس».

وجمع الرصاص من كل مكان، وبقيت قطعة من السقف لم يجدوا لها رصاصاً إلا عند امرأة أبنت أن تبيعه إلا بوزنه ذهباً، فكتب بذلك العامل إلى الوليد، فقال له: اشتره منها بوزنه ذهباً، فلما قال لها ذلك قالت: هو هدية مني إلى المسجد. فقال لها: كيف ضمنت به أولاً إلا بوزنه ذهباً ثم سمحت به هدية؟ قالت: أنا لا أريد الذهب ولكن أردت أن أحثبر عدل الإسلام. قالوا: وكانت يهودية. فكتب على صفائحه كلمة (الله).

الأروقة والفسيفسae:

فتم المسجد صحنًا مكشوفاً، حوله ثلاثة صفوف من الأعمدة من غرب وشمال وشرق، وحرَّم مسقوف في وسطه رواق عاليٌ من الشمال إلى الجنوب تتوجّه قبة النسر، وثلاثة أروقة من الشرق إلى الغرب، كانوا يسمونها البلاطات وكلّه من المرمر، وقد أسدلت على أبواب الحرم وعلى الثلث الأدنى من جدرانه ستور المزدوجة، كما يكون اليوم في دور الموسرين المترفين، ولكتها من الديباج واللوشي، وغُطّي باقي الجدار وجدران الصحن بالفسيفسae. والفسيفسae (والكلمة يونانية أصلها بسيفوسيس) فصوص صغيرة، تكون من الزجاج والحجر، ومن الرخام ومن الصدف، مختلفة الألوان والأشكال، فمنها المثلث والربع والمستدير والمستطيل، ترصف على طبقة من الجص المصمغ أو نحوه، وربما صُنعت فصوصها من مواد مختلفة، تخلط وتُطبخ على طريقة كانت معروفة، وربما حُليت بالذهب وغُطّيت بطبقة من الزجاج أو ما يشبهه. وقد توصلت وزارة أوقاف الشام إلى صنع مثلها في هذه الأيام.

وكانت أرض المسجد وجدرانه وسقوفه مغطاةً بهذه الفصوص المذهبة^(۱)، التي جمعت صور بلاد الدنيا (كما قال المؤرخون)، فما

(۱) ثم رصفت أرضه بال بلاط بعد ذلك (كما تقدم).

يريد المرء إقليماً إلا وجده في الجامع، مصوّراً كهيئته، فيراه من غير أن يتعب بالسفر إليه وصور كل شجرة، مثمرة وغير مثمرة، ومكة والكعبة فوق المحراب، وإلى جنبها صورة كرمة، حسبوا ما أنفق عليها فقالوا: إنه بلغ سبعين ألف دينار. والله أعلم.

ويظهر من خبر المأمون (وقد تقدم) أن هذه النقوش بقيت على رونقها وزيتها إلى عصره.

وفي خبر أبي الليث الذي رواه ابن عساكر أنها بقيت إلى سنة ٤٣٢ هـ، بل لقد بقيت على حالها إلى حريق سنة ٤٦١ كما نقل ابن كثير.

النناديل:

وعُلِقَ في المسجد قناديل البلور، في السلسل المذهبة، وجُعل فيها المسك، فكان الناس إذا أطافت يأخذون بأنوفهم من ريح المسك، وكان فيها ثريا ثمينة نادرة تسمى (القليلة) فبقيت إلى أيام الأمين، وكان يحب البلور، فكتب إلى والي دمشق أن يوجه بها إليه، فلما قُتل ردها المأمون إلى مكانها، وكانت في محراب الصحابة (محراب المالكي الآن)، ثم ذهبت فجعل مكانها بزينة من زجاج، ثم انكسرت فلم يجعل في مكانها شيء.

نفقات البناء:

وهال الناس ما أنفق الوليد على المسجد، وتكلّموا فيه، وكانت للشعب رقابة فعلية على الخليفة، وإن لم تكن يومئذ صحف ولا برلمان، وأتاه حاجبه وقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس يتحدثون أنك أنفقت الأموال في غير حقها فنادي: «الصلوة جامعة». وكان هذا النداء بمثابة دعوة للناس إلى اجتماع شعبي طارئ، فاجتمعوا في المسجد،

فقال لهم: لقد أبلغني حرسى أنكم تقولون: إن الوليد أُنفق الأموال في غير حقها، ألا يا عمر بن مهاجر (وكان أمين الخزانة) قم فأحضر ما لديك من الأموال في بيت المال. فأتت البغال تدخل بالمال ويصب على الأنطاع، حتى إن من كان في جهة الشمال لم يُصر من كان في جهة القبلة. قال: الموازين! فأتت الموازين، فوزن المال وأحصي فوجدوا أن في بيت المال من المدخر ما يقوم بنفقات الدولة سنين.

صفائح التاريخ:

وكتب تاريخ المسجد على صفائح مذهبة فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم. لا تأخذه سنة ولا نوم. له ما في السموات وما في الأرض. منذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم. ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء. وسع كُرسيه السموات والأرض ولا يَؤُودُه حفظهما وهو العلي العظيم».

لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، لا نعبد إلا إيه، ربنا الله وحده
وديننا الإسلام ونبينا محمد ﷺ.

أمر ببنيان هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبدالله الوليد أمير المؤمنين في ذي القعدة من سنة ست وثمانين».

النصارى والأموي:

ولما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز، ورأى النصارى عده وسيرته، وحكمه برد مدينة سمرقند إلى أهلها لما جاؤوا ببيانٍ على أنها فُتحت غدرًا^(١)، طمعوا في استرجاع الكنيسة، ورفعوا دعواهم إليه وأدلو بالمعاهدة التي شرطت لهم ألا تهدم كنائسهم، ولا تسكن، فكلمهم وحاول إرضاءهم ودفع لهم مئة ألف دينار أي نحو مليوني

(١) انظر (قضية سمرقند) في كتابي «قصص من التاريخ».

درهم. فأبوا. فأمر بأن تُعاد إليهم الكنيسة، وكلف محمد بن سعيد الفهري بهذه المهمة فأكابر ذلك محمد وأكبره الناس، وقالوا: كيف ندفع إليهم مسجدنا بعدما صلينا فيه وقرأنا في هدم فيعاد كنيسة؟.

فقال رجل منهم: ارفعوا دعوى (مقابلة) إلى أمير المؤمنين، بأننا نتمسك بالمعاهدة، والمعاهدة تحمي كنائسهم التي كانت حين الفتح، ولكنها تمنعهم أن يُحدثوا غيرها، وقد أحدثوا بعد الفتح سبع كنائس ما لهم فيها حق، وعليهم بحکم المعاهدة أن يهدموها. فإن أحبو فإننا نعطيهم الكنيسة التي صارت مسجداً، ونهدم كل ما أحدثوا من كنائس، وإن شاؤوا تركت لهم كل كنيسة أحدثوها، ونجعل للمعاهدة ملحقاً نعرف لهم بها، فاستمهلوا، ثم قبلوا بذلك، وتنازلوا عن دعواهم.

عمر وزخارف الأموي:

ثم نظر عمر إلى هذه الزينة وهذه الزخارف، فعزم على إبطالها، لأن كل ذلك مخالف لسنة الرسول ﷺ في بناء المساجد، والإسلام يكره زخرفة المساجد، والسرف في بناها، لئلا تشغل المسلمين بروعة بناها عن مراقبة ربهم، وحسن التوجّه إليه، وكل ما نرى في المساجد الآن من الزخرف والفن والنقوش والتعالي في البيان والتزيّد من الفرش، كل ذلك مما رغب الإسلام عنه وكرهه، كما كره إقامة القبور فيها والكتابة على جدرانها.

ثم إن عمر بن عبد العزيز قال: لقد هممت أن أعمد إلى تلك الفسيفساء وذلك الرخام فأقلعه، وأجعل مكانه طوبياً، وأنزع تلك السلسل وأجعل مكانها حبلاً، وأنزع تلك البطائن (أي الستائر) فأبيع جميع ذلك، وأدخله بيت المال، بلغ ذلك أهل دمشق، فاشتد ذلك عليهم، فخرج إليه أشرافهم، وفيهم رجل يقال له خالد، فقال: أئذنوا لي حتى أكون أنا المتكلم. فأذنوا له. فلما أتوا دير سمعان استأذنوا على

عمر، فأذن لهم، فلما دخلوا سُلّموا عليه، فقال خالد: يا أمير المؤمنين بلغنا أنك همت أن تفعل كذا وكذا في مسجدنا، فقال لهم: رأيت أموالاً أنفقت في غير حقها وأنا مستدرك ما أدركت فأجعل قرارها في بيت المال، فقال له خالد: والله ما ذلك لك يا أمير المؤمنين. فقال له: لمن هو؟ لأمك الكافرة؟ وغضب عمر، وكانت أم خالد نصرانية^(١). فقال له: إن تكون كافرة، فقد ولدت مؤمناً. فاستحبأ عمر، وقال: صدقت. ثم قال: ما معنى قولك، ما ذلك لي؟ فقال: لأننا كنا عشرة أهل الشام وإنخواننا من أهل مصر وإنخواننا من أهل العراق، نغزو فيفرض على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم قسماً من الفسيفساء، وذراعاً في ذراع من رخام، فيحمله أهل العراق وأهل حلب إلى حلب ويستأجرون من يحمله إلى دمشق، ويحمله أهل دمشق ومن وراءهم حصتهم إلى دمشق. فذلك قوله، ما ذلك لك. فسكت عمر، ثم جاء كتاب من يزيد بن معمر يخبره أن قارباً ورد عليه من رومية فيه عشرة من الروم، عليهم رجل منهم، يريدون الوفود على أمير المؤمنين، فكتب إليه أن وجهم إلى، ووجه معهم عشرة من المسلمين واجعل عليهم رجلاً منهم ول يكن يحسن التكلم بالرومية ولكن لا يعلموهم بأنهم يعرفون لغتهم، وذلك لأجل أن يحملوا كلامهم، ففعل ما أمره به وساروا حتى أتوا دمشق، فنزلوا خارج باب البريد، فسأل الروم رئيس العشرة من المسلمين أن يستأذن لهم الوالي في دخول المسجد، فأذن لهم فمروا في الصحن حتى دخلوا من الباب الذي يواجه القبة، فكان أول ما استقبلوه المنبر، ثم رفعوا رؤوسهم إلى القبة فخر رئيسهم مغشياً عليه، فحمل إلى منزله فأقام ما شاء الله أن يقيم ثم أفاق فقالوا له بالرومية: ما

(١) هو إذن خالد بن عبدالله القسري.

قصتك؟ عهدنا بك من رومية وما أنكرنا منك شيئاً، وصحيتنا في طريقنا
فما أنكرناك، فما الذي عرض لك حين دخلت هذا المسجد؟ فقال: إننا
معشر أهل رومية تحدثت أن بقاء العرب قليل، فلما رأيت ما بنوا علمت
أن لهم مدةً سيقونها، فلذلك أصابني ما أصابني. فلما قدموا على عمر
أخبروه بما سمعوا منه، فقال: لا أرى مسجد دمشق إلا غيظاً على
الكافر فنزل عما كان هم به من أمره.

* * *



أطوار الأموي وأحداثه

مرت بالمسجد أحداث جسام، لا أستطيع أن أستقصيها في هذه العجلة، إنما أعرض إليها عرضاً، وموعدنا بتفصيل أمرها كتابي الكبير عن الجامع، إن وفق الله إليه وأذن بإتمامه.

الحرائق والزلزال:

فمن أكبر الأحداث التي أصابته الحرائق. وكان بقي سليماً، جدرانه كلها وسقوفه مغطاة بفصوص الفسيفساء المذهبة، ونقوشه بادية، وستره مسدلة، إلى سنة ٤٦١، حين انقسمت الدولة دولتين، وصارت الخلافة خلفتين، وادعى العبيديون أنهم من نسل فاطمة رضي الله عنها، وأقاموا حكومة باسمها، اتخذت لها غير مذهب جمهور المسلمين مذهبًا، وأحدثت منكرات ويدعاً. وكان الخلاف قد استحكم في دمشق بين علمان العباسيين وعلمان الفاطميين، ووصل إلى سَلَّ السيف وإراقة الدماء، والترامي بالنار، فأصابت النار دار الإمارة وهي الدار الخضراء (التي لم يبق منها الآن إلا مصبغة صغيرة في زقاق ضيق، اسمها المصبغة الخضراء) فاحتربت الدار وأمتد الحريق إلى المسجد، فأكلته النار أكلاً ومحت محاسنه، وأذهبت كل ما كان فيه، فلم يبق منه إلا الجدران الأربع. وصارت أرضه بعد الفسيفساء التي تأخذ العقول تللاً من التراب، طيناً في الشتاء، وغباراً في الصيف. وجُمعت فصوص

الفسيفساء فأودعت في المشاهد، إلى أن أخرجها ناظر المسجد القاضي
الشهرزوري أيام السلطان نور الدين.

وبقي المسجد مخرباً أربع عشرة سنة حتى جددت عمارة السقف
والقبة أيام ملكشاه السلجوقي على يد الوزير نظام الملك (مؤسس
المدرسة النظامية). أما الصحن فبقي تراباً وطيناً، حتى بلط أيام الملك
العادل بعد المستمة. كما مرّ في الكلام على بلاط الجامع.

وفي سنة ٥٦٢ كان حريق حي اللبادين (النوفرة) فسرت النار
إلى الأموي، فأحرقت قسماً منه من جهة باب جiron.

وفي سنة ٥٧٠ أصابه حريق جزئي آخر، حين احترقت مدرسة
الكلاسة وامتدت النار إلى مئذنة العروس فاحترقت.

وفي سنة ٦٤٦ احترقت سلالم المنارة الشرقية والبيوت التي في
أسفلها وتضعضعت.

وفي سنة ٦٨١ كان حريق جزئي آخر، إذ احترق سوق اللبادين
وسوق جiron فامتدت النار إلى حيطان الجامع ووصلت إلى قسم من
السقف.

وفي سنة ٧٤٠ كان الحريق الكبير في دمشق، فأكلت النار أسوافاً
برمتها وكانت خسائر فادحة في الأموال، ووصلت النار إلى الجامع
فاحتربت المئذنة الشرقية وقسم من الجانب الشرقي.

وأصابه حريقان جزئيان سنة ١٠٦٤ وسنة ١١٣١.

وكان الحريق الثاني الذي شمل المسجد كله هو الحريق الأخير
سنة ١٣١١ وسيأتي حديثه.

أما الزلزال التي تتابعت على المسجد فمنها:

زلزال سنة ١٣١ الذي انشق منه سقف المسجد على طوله.

وفي سنة ٢٣٣ كان زلزال شديد أسقط المنارة فانهالت حجارتها على المسجد وخرّبت رُبْعَه، وترآكمت فيه كأنها جبل.

وفي سنة ٥٥٢ كانت زلزلة عظيمة أسقطت كثيراً مما كان قد بقي من فصوص الفسيفساء.

وفي سنة ٥٩٧ كانت أشد زلزلة على الأموي، إذ أسقطت قسماً من المنارة الشرقية وتشققت منها قبة النسر، وقيل إنها سقطت بعد ذلك على الناس.

وزلزال سنة ٧٠٢ الذي تشققت منه بعض جدران الجامع.

وزلزال سنة ١١٧٣ الذي سقطت منه قبة عائشة، وتخرّب بعض المسجد.

إصلاحات في الأموي:

أما الإصلاحات الكبرى فيه فمنها:

أنها جُددت عمارة الحائط الشمالي سنة ٥٠٣، أيام المستظاهر العباسى بأمر الوالى طغتكين.

وسنة ٧٢٨ نزع الرخام عن الجدار القبلي من الجهة الغربية، فوجد فيه خلل، فحضر تنكرز نفسه ومعه القضاة والخبراء وقرر هدمه وإصلاحه واستأذن السلطان فأذن له، فعمره واستنفر له الناس، فتطوّعوا للعمل، وأخذوا له حجارة وجدوها في أصل المنارة الغربية المزالة عند الغزالية، فتمت العمارة في أقل من ستة أشهر. وفي سنة ٧٢٩ كمل ترميم الحائط القبلي.

وفي سنة ٧٣٠ رمِّم الجانب الشرقي حتى صار كالغربي.

القبة :

قبة النسر جُددت سنة ٤٧٥ وسُقفت المقصورة والطاقات والأركان الأربع في عهد نظام الملك وزير ملکشاه السلجوقي.

وفي سنة ٥٧٥ جَدَّد صلاح الدين ركين من القبة.

وفي شوال سنة ٦٠٢ أصلحت عدة من دعائم القبة من جهة الشمال.

وفي سنة ٦١١ أُسندت قبة النسر بأربعة أوتاد من الخشب، طول كل منها ٣٢ ذراعاً بذراع العمال، جيء بها من بساتين الغوطة.

وفي سنة ٦٧٨ جَدَّدت أربعة دعائم في قبة النسر من ناحية الغرب.

أما القبة القائمة الآن فهي والحرم كله من بناء أهل الشام بعد الحريق الأخير، كما سيأتي.

المآذن :

أما المآذن فقد كان في الروايا الأربع قبل أن يصير جامعاً أربع صوامع، فتهدمت الصومعتان الشماليتان من القديم ولم تجدها وبقي أساسهما، وأخذ من حجارة الأساس في الصومعة الشمالية الغربية لبناء الجدار القبلي سنة ٧٢٨. ولما بني الوليد المسجد رفع فوق الصومعتين الإماميتين المئذتين (الغربية والشرقية) وبين مئذنة وسط الجدار الشمالي، هي مئذنة العروس، وجعلها مذهبة كلها من أعلاها إلى أسفلها.

واحترقت المئذنة الشمالية (العروض) في حريق مدرسة الكلاسة في المحرم سنة ٥٧٠، فجددها السلطان صلاح الدين.

وفي سنة ٦٤٦ احترق القسم الأعلى من المنارة الشرقية وسلامها والغرف التي في أسفلها، وأعادها الملك الصالح الأيوبي. وفي أسفل المنارة الشرقية بيت طهارة وغرفتان. أما الغربية فبأسفلها قاعدة بلا ماء جددها السلطان قاتيبياي المتوفى سنة ٩٠١ بعد خرابها في حرب تيمورلنك، وكان أول يوم أذن فيها بعد تعطيلها وتتجديدها ٢ رمضان ٨١٤. وأقيم في ذي القعدة ٨١٤ درابزين مئذنة العروس.

وسنة ٨١٦ فرغ من بناء الغربية، وكان قد تخرّب رأسها في حرب تيمورلنك.

وقد جدد النصف الأعلى من مئذنة العروس من عهد قريب.

ونُقض في أيامنا النصف الأعلى من المئذنة الشرقية لخللٍ ظهر فيه وأعيد كما كان.

المشاهد:

وفي سنة ٥٩٦ جدد مشهد عروة وفتح بعد ما أغلق مدة (وربما سمي مشهد ابن عروة وكان يسمى قديماً مشهد علي ويدعى اليوم مشهد اليافي وهو معدّ اليوم لل موضوع).

وفي سنة ٦٦٨ جدد الملك الظاهر مشهد زين العابدين (مشهد الحسين)، بعدما استولى عليه الخراب، وطرد من كانوا يتخدونه ملجاً إلا واحداً منهم رأى فيه الصلاح والعبادة، وأغلق مدة في أيام العثمانيين وأهمل، فجددته الوالي سليمان باشا وفتحه.

وفي سنة ٦٩٨ جدد مشهد عثمان (المتّخذ الآن بهواً للاستقبال)، بإشراف ناظر الجامع الناصر بن عبد السلام، وجعل له إمام راتب.

الرخام والفسيفسae:

في سنة ٦٣٠ جدد ترميم باب الجامع الشرقي.

جدد الظاهر^(١) نحو سنة ٦٦٨ كثيراً من الرخام في الحاجط الشمالي، وكثيراً من الفسيفساء في الجدار الغربي، وأصلاح رخامه ورممه وجلب له الرخام من كل جهة، فكان أحسن مما عمل قديماً، وأنفق في ذلك عشرين ألف دينار. وفي سنة ٧٢٧ كمل ترميم الحاجط الشمالي، بأمر تنكرز وعهد الناظر ابن المرحل.

وفي سنة ٧٣٠ جمعت فصوص الفسيفساء الباقيه لتجعل في الجدار القبلي للصلح، في عهد ابن المرحل ناظر الجامع وبإذن نائب السلطنة تنكرز والقاضي الإخنائي الشافعي. ولكن ذلك لم ينفذ كما يظهر.

وفي سنة ٧٤٠ جدد الناصر بن قلاوون ترميم مشهد أبي بكر.

* * *

(١) وسيأتي نصٌ فيه تفصيل ذلك.

من أخبار الأموي

وفي رمضان سنة ٤١١ أقيمت في الصحن عمودان من الشرق والغرب جعلا لتنوير المسجد، وذلك بإذن قاضي البلدة وهم موجودان إلى الآن.

وفي سنة ٧٣٦ وُجد حائط دار الخطابة متشققاً فخرّب، ووُجد فيه حجارة كبيرة، وظهر باب كبير ملائم له (أسكفة) وجوانب، والجميع مُهدم، فُنقلت الحجارة الكبار إلى باب الفرج فاستعين بها في بنائه.

وفي سنة ٦٩٩ نظر الملك الظاهر في أوقاف الجامع وما يُصرف منها لأرباب الرواتب، فمن كان منهم مستغنياً وليس به انتفاع في علمٍ أبطله، ومن كان منهم ذا حاجة ولم يكن لديه علم رَتَبْ له على بيت المال ما يقوم به، وصرف ما كان مقرراً لمن أبطله في مصالح الجامع، وفيمن للمسلمين الانتفاع بعلمه، ورَتَبْ فيه مصحفاً يُقرأ فيه بعد صلاة الصبح تحت قبة النسر، وأجرى على القارئ فيه كل شهر شيئاً معلوماً. وكان بصحن الجامع الأموي حواصل للمنجنونات وحواصل للأمراء، فيها أشياء من خيم وغيرها فأمر بإزالتها، فاتسع الجامع وازاد رونقه، وتطلّب كتب الوقف، وكانت قد أهمل النظر فيها، وأجرى الوقوف على شروطها من واقفيها، وإنما كان المتولى للنظر فيها يعمل بمقتضى رأيه في منعه وإعطائه، فحملت إليه بعدهما شقّ على الباحث عنها وجودها،

فوجدها قد تمزق القديم منها، وما كان وقفه الملك العادل نور الدين محمود ومن بعده من الملوك قد كادت كتبها تتلف، فأمر بإحياء خطوطها وإثباتها عند سائر القضاة، واجتهد فيها حسب ما اقتضته آراؤه السعيدة وأفعاله الرشيدة، وكذلك فعل في وقف البيمارستان الكبير، وليس ذلك بمستنكر من خلائقه في إقامة منار الإسلام، ورفع من خفضه البخوت على التخوت من العلماء الأعلام، وكانت سائر الوقوف المرسلة على ما وُقفت عليه مضافة إلى وقف الجامع الأموي، وكانت لا تُصرف في أربابها، وإنما تُصرف في مرتب الجامع، فأفردتها منه، وولّها من يصرفها على شروط من وقفها، وأثبتت كتبها كما فعل فيما عدّها من الأوقاف الجامعية والبيمارستانية.

وفي سنة ٨٣٠ كشفوا عن رؤوس الجسور في الجامع فوجدوا بضعة عشر جسراً تآكلت، فأصلحت.

وفي أيام الملك الناصر الأيوبي فرض من ماء قنوات زيادة على ماء بناس (بانياس) للأموي مقدار ١٧ إصبعاً.

* * *

الأموي في أواخر القرن السادس الهجري

زار ابن جبیر الجامع الأموي في أواخر القرن السادس، ووصفه في رحلته وصفاً دقیقاً صادقاً، رأیت أن أثبته بحروفه في هذه الرسالة، وأثبتت بعده حديثه عن صعوده إلى قبة المسجد.

قال ابن جبیر: إن ذرعه في الطول من الشرق إلى الغرب: مائتا مساحته خطوة، وهي ثلاثة ذراع، وذرعه في السعة من القبلة إلى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع، فيكون تكسيره من المراجع الغربية أربعة وعشرون مرجعاً، وهو تكسير مسجد رسول الله ﷺ غير أن الطول في مسجد رسول الله ﷺ من القبلة إلى الشمال، وبالاطاته^(۱) المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب، سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة، والخطوة ذراع ونصف، وقد قامت على ثمانية وستين عموداً، منها أربع وخمسون سارية، وثمانين أرجل حصية تتخللها، وأثنان مرميّتان ملصقتان معها في الجدار الذي يلي الصحن، وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام أعمدته ملونة قد نظمت خواتيم وصورت محاريب وأشكالاً غريبة قائمة في البلاط الأوسط تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب، سعة كل رجل منها ستة عشر شبراً، وطولها عشرون شبراً، وبين كل رجل ورجل في الطول سبع عشرة خطوة وفي العرض ثلاثة عشرة خطوة، فيكون دور

(۱) ما بين كل صفين من الأعمدة كانوا يسمونه بلاطة. وتسمى اليوم (معزبة).

كل رجل منها اثنين وسبعين شبراً ويستدير بالصحن بلاط من ثلاثة جهاته، الشرقية والغربية والشمالية، سعته عشر خطأ وعدد قوائمه سبع وأربعون منها أربع عشرة رجلاً من الجنس، وسائرها سوار، فيكون سعة الصحن حاشا المسقف القبلي والشمالي مائة ذراع وسقف الجامع كله من الخارج ألواح رصاص.

وأعظم ما في هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب، سامية في الهواء، عظيمة الاستدارة، قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها يتصل من المحراب إلى الصحن، وتحته ثلاثة قباب (١)، قبة تتصل بالجدار الذي إلى الصحن، وقبة تتصل بالمحراب، وقبة تحت قبة الرصاص بينهما، والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء، فإذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً ومرأى هائلاً يشبهه الناس بنس طائر، كأن القبة رأسه، والغارب صدره، ونصف جدار البلاط عن يمين ونصف عن شمال جناحاه، ووسعه هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة، فهم يعرفون هذا الموضع من الجامع بالنسر، لهذا التشبيه الواقع عليه. ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء منيفة على كل علو كأنها معلقة من الجو. والجامع المكرم مائل إلى الجهة الشمالية من البلد.

شمسياته وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون منها في القبة التي تحت قبة الرصاص عشر، وفي القبة المتصلة بالمحراب وما يليها من الجدار أربع عشر شمسية، وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون، وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست، وفي ظهر الجدار إلى الصحن سبع وأربعون شمسية.

وفي الجامع المكرم ثلاثة مقصورات، مقصورة الصحابة رضي

(١) وهي غير موجودة اليوم.

الله عنهم، وهي أول مقصورة وضع في الإسلام وضعها معاوية بن أبي المقصرين سفيان رضي الله عنهما، وبإزاره محرابها المقصرين، عن يمين مستقبل القبلة باب حديد كان يدخل معاوية رضي الله عنه إلى المقصورة منه إلى المحراب، وبإزاره محرابها لجهة اليمين مصلى أبي الدرداء رضي الله عنه، وخلفها دار معاوية رضي الله عنه، وهي اليوم سمات عظيم للصفاريين يتصل بطول جار الجامع القبلي، ولا سمات أحسن منظراً منه ولا أكبر طولاً وعرضًا، وخلف هذا السمات على مقربة منه دار الخيل برسمه، وهي اليوم مسكونة، وفيها مواضع للكمادين، وطول المقصورة الصحابية المذكورة أربعة وأربعون شبراً، وعرضها نصف الطول، ويليها لجهة الغرب في وسط الجامع المقصورة التي أحدثت عند إضافة النصف المتخذ كنيسةً إلى الجامع حسبما تقدم ذكره، وفيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة، وكانت مقصورة الصحابة أولاً، في نصف الخط الإسلامي من الكنيسة، وكان الجدار حيث أعيد المحراب في المقصورة المحدثة، فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجداً صارت مقصورة الصحابة طرفاً في الجانب الشرقي، وأحدثت المقصورة الأخرى وسطاً، حيث كان جدار الجامع قبل الاتصال. وهذه المقصورة المحدثة أكبر من الصحابية، وبالجانب الغربي بإزاره الجدار مقصورة أخرى، هي برسم الحنفية، يجتمعون فيها للتدريس، وبها يصلون، وبإزارها زاوية محدقة بالأعماد، كأنها مقصورة صغيرة، وبالجانب الشرقي زاوية أخرى على هذه الصفة، هي كالمقصورة، كان وضعها للصلاة فيها أحد أمراء الدولة التركية، وهي لاصقة بالجدار الشرقي.

وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب، يتخذها الطلبة الزوايا للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس، وهي من جملة مرافق الطلبة.

أبواب
الصحن

الشاميون
والجامع

وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات القبلية عشرون باباً متصلة بطول الجدار قد علتها أقواس جصية مخرمة كلها على هيئة الشمسيات، فتبصر العين من اتصالها أجمل منظر وأحسنه، والبلاط المتصل بالصحن المحيط، والبلاطات من ثلاث جهات على أعمدة، وعلى تلك الأعمدة أبواب مقوسة، تقلّها أعمدة صغار تطيف بالصحن كله. ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها، وفيه مجتمع أهل البلد، وهو متفرّجهم ومنتزههم، كلّ عشيةٍ تراهم فيه ذاهبين وراجعين، من شرق إلى غرب، من باب جيرون إلى باب البريد، فمنهم من يتحدث مع صاحبه، ومنهم من يقرأ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع إلى انقضاء صلاة العشاء الآخرة، ثم ينصرفون ولبعضهم بالغداة مثل ذلك، وأكثر الاحتفال إنما هو بالعشى، فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم، لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم، لا يزالون على ذلك كل يوم، وأهل البطالة من الناس يسمونهم (الحراثين).

المآذن وللجامع ثلاث صوامع، واحدة من الجانب الشرقي، وهي كالبرج المشيد تحتوي على مساكن متعددة وزوايا فسيحة راجعة كلها إلى إلحاد، يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير، والبيت الأعلى منها كان معتكف أبي حامد الغزالى رحمة الله، وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة، وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفين (باب العمارة).

وفي الصحن ثلاثة قباب، إحداها في الجانب الغربي منه وهي أكبرها، وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام، مستطيلة كالبرج، مزخرفة بالفصوص والأصباغ الملونة، يقال إنها كانت مخزناً لمال الجامع، وله مال عظيم من خراجات ومستغلّات تنيف (على ما ذكر لنا)

على الثمانية آلاف دينار في السنة وهي خمسة عشر ألف درهم.

وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من الرخام قد أُلْصق أبدع إلصاق، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام، وتحتها شباك حديد مستدير وفي وسطه أنبوب من النحاس يمْجَّع الماء إلى علوٍ فيرتفع ويثنى، كأنه قضيب لُجَّيْن يشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافاً واستحساناً، ويسمونه قفص الماء، والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية أعمدة على هيئة القبة الكبيرة، لكن أصغر منها، وفي الجانب الشمالي من الصحن باب كبير يفضي إلى مسجد كبير، في وسطه صحن قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير، يجري المشاهد الماء فيه دائمًا من صفحة رخام أبيض مثمنة قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود متقوب يصعد الماء منه إليها. وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يُفضي إلى مسجد من أحسن المساجد وأبدعها وضعاً، وأجملها بناءً، ويزعمون أنه مشهد لعلي بن أبي طالب. يقابلها في الجهة الغربية في زاوية البلاط الشمالي من الصحن موضع هو ملتقى آخر البلاط الشمالي مع أول البلاط الغربي مجلل بستر في أعلىه، وأمامه ستر أيضاً منسدل، يزعم أكثر الناس أنه موضع لعائشة رضي الله عنها، وأنها كانت تسمع الحديث فيه. وذلك كله لا أصل له، وإنما ذكرناه لشهرته في الجامع.

وكان هذا الجامع المبارك ظاهراً وباطناً منزلًا كله بالفصوص المذهبة، مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة، فأدركه الحريق مرتين، فتهدم وجُدد، وذهب أكثر رخامه فاستحال رونقه، فأسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها، ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية، حُسناً وغرابةً صنعة، يتقد ذهبًا كله وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجدرانه تحفها سوريات مفتولات قتل الأسوره

القبلة كأنها مخروطة لم يُرَ شيءً أجمل منها، وببعضها حمر كأنها مرجان، والمحراب فشأن قبلة هذا الجامع المبارك مع ما يتصل بها من قباه الثلاث وإشراق شمسياته المذهبة الملونة عليه واتصال شعاع الشمس بها وانعكاسه إلى كل لون منها حتى ترتمي الأ بصار منه أشعة ملونة يتصل ذلك بجداره القبلي كله عظيم لا يُلْحق وصفه ولا تبلغ العبارة بعض ما يتصوره الخاطر منه، والله يعمره بشهادة الإسلام وكلمته بمنته. وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضي الله عنه وهو المصحف الذي وجّه به إلى الشام، وتُفتح الخزانة كل يوم إثر الصلاة فيتبرّك الناس بملمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه.

أبواب وله أربعة أبواب: (باب) قبلي ويُعرف بباب الزيادة وله دهليز كبير الجامع متسع له أعمدة عظام وفيه حوانين للخززين وسواهم، وله مرأى رائع ومنه يُفضي إلى داخل الخيل، وعن يسار الخارج منه سمات الصفارين وهي كانت دار معاوية رضي الله عنه وتُعرف بالحضراء.

(وبياب) شرقي هو أعظم الأبواب، ويُعرف بباب جিرون. و(باب) غربي ويُعرف بباب البريد. و(باب) شمالي ويُعرف بباب الناطفين، وللشرقي والغربي والشمالي أيضاً من هذه الأبواب دهليز متسع، ويفضي كل دهليز منها إلى باب عظيم كانت كلها مداخل الكنيسة فبقيت على حالها، وأعظمها منظراً الدهليز المتصل بباب جিرون يخرج من هذا الباب إلى بلاط طويل عريض، قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوسة لها ستة أعمدة طوال، وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيلي، كان فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنهم، ثم نُقل إلى القاهرة، وبإزاره مسجد صغير يُنسب لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وبذلك المشهد ماء جار، وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها الدهليز، وهو

الدهليز
الشرقي

كالخندق العظيم يتصل إلى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سمواً، وقد حفته أعمدة كالجذوع طولاً، وكالأطواود ضخامةً، ويجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة، فيها الحوانى المتضمة للعطارين وسواهم، وعليها شوارع أخرى مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء، مشرفة على الدهليز، وفوقها سطح يبيت به سكان الحجر والبيوت. وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام، عليه قبة تقلها أعمدة من الرخام، ويستدير بأعلاها طرة من الرصاص واسعة مكسوفة للهواء، وفي وسط الحوض الرخامي أنبوب صفر يزعج الماء بقوه فيرتفع إلى الهواء أزيد من القامة، وحوله أنابيب صغار ترمي الفواراء الماء إلى علو فيخرج عنها كقضبان اللُّجَيْنِ، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ومنظرها أعجب وأبدع من أن يلحوظ الوصف.

وعن يمين الخارج من باب جиرون في جدار البلاط الذي أمامه غرفة، ولها هيئة طاق كبير مستدير، فيه طيكان صفر فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار، وقد دبرت تدبيراً هندسياً، فعند انقضاء ساعة الساعة من النهار تسقط صنجبتان من صفر من فم بازبين مصورين من صُفر، قائمهين على طاستين من صفر، تحت كل واحد منهما طاستان، إحداهما تحت أول باب من تلك الأبواب، والثانية تحت آخرها، والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازبين يمدان أنعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين، ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين يلوح من الصفر، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار، حتى تتغلق الأبواب كلها وتنتهي الساعات. ثم تعود إلى حالها الأول ولها بالليل تدبير آخر، وذلك في أن في القوس المتعطف على الطيكان

المذكورة اثنتا عشرة دائرة من النحاس، مخرومة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقات المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها، فلاحت للأبصار دائرة محمرة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى، حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها، وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنب إلى موضعها وهي التي يسميها الناس المنجاة.

الدهليز ودهليز الباب الغربي فيه حوانيت البقالين والطارين، وفيه سمات الغربي لبيع الفواكه، وفي أعلى باب عظيم يُصعد إليه على أبراج، وله أعمدة سامية في الهواء، وتحت ابراج سقایاتان مستديرتان، سقاية يميناً وسقاية يساراً، لكل سقاية خمسة أنابيب ترمي الماء في حوض رخام مستطيل.

الدهليز ودهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مساطب محدقة بالأعواد، الشمالي هي محاضر لمعلمي الصبيان، وعن يمين الخارج في الدهليز خانقة مبنية للصوفية، في وسطها صهريج يقال إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ولها خبر سيأتي ذكره بعد هذا، والصهريج الذي في وسطها يجري الماء فيه ولها مطاهر يجري الماء في بيوتها، وعن يمين الخارج أيضاً من باب البريد مدرسة للشافعية في وسطها صهريج يجري الماء فيه، ولها مطاهر على الصفة المذكورة، وفي الصحن بين القباب المذكورة عمودان متباعدان لهما رأسان من الصقر مستطيلان قد خرما أحسن تحرير، يُسرّجن ليلة النصف من شعبان فيلوحان كأنهما ثريتان مشتعلتان.

واحتفال أهل هذه البلدة بهذه الليلة المذكورة أكثر من احتفالهم ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم.

وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائمًا، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى القراء الكوثرية، يقرؤون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة، ويحضر في هذا المجتمع الكوثرى كل من لا يُجيد حفظ القرآن، وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمائة إنسان، وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم، فلا تخلو القراءة منه صباحاً ولا مساءً.

وفي حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللملكية زاوية للتدريس على الجانب الغربي يجتمع فيه المغاربة ولهم إجراء معلوم، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة، وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه هي بين المقصورتين القديمة والحديثة لها وقف معلوم يأخذه المستند إليه للمذكرة والتدرис، أبصرنا بها فقيها من أهل إشبيلية يُعرف بالمرادي، وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن، وللصبيان أيضاً على قراءتهم جرایة معلومة، فأهل الجلة من الآباء يتزهرون أبناءهم عن أخذها، وسائلهم يأخذونها، وهذا من المفاخر الإسلامية، وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم له ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسوهم، وهذا أيضاً من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد. وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعملون الخط في الأسعار وغيرها تنزيهاً لكتاب الله عزّ وجلّ عن ابتدال الصبيان له بالإثبات والمحو، وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة، فيفصل من التلقين إلى التكتيب لهم في سيرة حسنة، ولذلك ما يتأنى لهم حسن الخط لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم،

والصبي في التعلم، كذلك ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه. ويستدير بهذا الجامع المكرم أربع سقایات ، في كل جامع سقاية، كل واحدة منها كالدار الكبيرة محدقة بالبيوت الخلاثية ، والماء يجري في كل بيت منها ، وبطول صحنها حوض من الحجر مستطيل ، تُصب فيه عدة أنابيب منتظمة بطوله ، وإحدى هذه السقایات في دهليز باب جيرون وهي أكبرها ، وفيها من البيوت نصف عن الثلاثين ، وفيها زائدًا على السقاية المستطيلة مع جدارها حوضان كبيران مستديران يكادان يمسكان لسعتها عرض الدار المحتوية على هذه السقاية ، والواحد بعيد عن الآخر ، ودور كل واحد منهم نحو الأربعين شبرًا والماء نابع فيهما. والثانية^(١) في دهليز باب الناطقين بإزاء المعلمين . والثالثة عن يسار الخارج من باب البريد . والرابعة عن يمين الخارج من باب الزيادة .

قبير يحيى وفيه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليه السلام وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية ، رضي الله عنهم . وعليه تابوت خشب معرض من الأسطوانة ، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف ، كأنه الفدح الكبير ، لا يُدرى أمن زجاج عراقي أم صوري هو أم غير ذلك؟ .

صعوده إلى القبة:

ومن أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن ، وهياكلها الغريبة البنيان المعجزة الصنعة والإتقان ، والمعترف بوصفها بالتقسيير لسان كل بيان ، الصعود إلى أعلى قبة الرصاص المذكورة في هذا التقسييد القائمة وسط الجامع المكرم ، والدخول في جوفها ، وإجالة لحظ

(١) هذه قد اندثرت والثلاثة الآخر باقيات.

الاعتبار في بديع وضعها مع القبة التي في وسطها، كأنها كرة مجوّفة داخلة في وسط كرة أخرى أعظم منها.

صعدنا إليه في جملة من الأصحاب المغاربة، صحوة يوم الاثنين الثامن عشر لجمادي الأولى سنة ٥٨٠ من مرقى في الجانب الغربي من بلاط الصحن، كان صومعة في القديم، وتمشينا على سطح الجامع المكرم وكله ألواح رصاص متتظمة، كما تقدم الذكر لذلك، وطول كل لوحة أربعة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار، وربما اعترض في الألواح نقص أو زيادة، حتى انتهينا إلى القبة المذكورة، فصعدنا إليها على سلم منصوب، والريح تكاد تطير بنا، فجئنا في الممشى المطيف بها وهو من رصاص، وسعته ستة أشبار، فلم نستطع القيام عليه لهول الموقف فيه، فأسرعنا اللوحة إلى جوف القبة، على أحد شراجيها، المفتوحة في الرصاص، فأبصراً مرأى تحار فيه العقول، وتوقف دون إدراكه هيبة وصف الأفهام، وجلنا على فرش من الخشب العظام، حول القبة الصغيرة الداخلة في جوف الرصاصية على الصفة التي ذكرناها، ولها طيقات يبصر منها الجامع ومن فيه، فكنا نبصر الرجال فيه كأنهم الصبيان. وهذه القبة مستديرة كالكرة، ظاهرها من خشب، قد شدّ بأضلاع من الخشب الضخام، مؤثثة بمناطق من الحديد، ينبعطف كل ضلع عليها كالدائرة، وتجتمع الأضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلىها، وداخل هذه القبة - وهو ما يلي الجامع المكرم - خواتيم من الخشب منظم بعضها بعض قد اتصلت اتصالاً عجياً، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب، مزخرفة التلوين، بديعة القرنصة، يرتمي الأ بصار شعاع ذهبها، وتحير الألباب في كيفية عقدها ووضعها لإفراط سموها.

أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية خاتماً مطراً جوف القبة، لم

يُكَنْ طوله أقل من ستة أشبار في عرض أربعة، وهي تلوح في انتظامها للعين كأن دورة كل واحد منها شبر أو شبران *الغاية*، لعظم سموّها. والقبة محتوية على هذه القبة المذكورة، وقد شدّت أيضًا بأضلاع عظيمة من الخشب الضخام، مؤثقة الأوساط بمناطق الحديد، وعدها ثمان وأربعون ضلعاً، بين كل ضلع وضلع أربعة أشبار، قد انعطفت انعطافاً عجيبةً، واجتمعت أطرافها في مركز دائرة من الخشب، أعلىها، ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة، وهي مائتا شبر وستون شبراً، والحال فيها أعظم من أن يبلغ وصفها. إنما هذا الذي ذكرناه ندية يستدل بها على ما وراءها، وتحت الغارب المستطيل المسمى النسر الذي تحت هاتين القبتين مدخل عظيم، هو سقف للمقصورة، بينه وبينها سماء خاص مزيّنة، وقد انتظمت فيه من الخشب ما لا يُحصى عدده، وانعقد بعضها ببعض، وتقوس بعضها على بعض، وتركت تركيًّا هائلًا منظره، وقد أدخلت في الجدار كله دعائم القبتين المذكورتين، وفي ذلك الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة، لا تنقلها الفيلة، فضلاً عن غيرها، فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك، فسبحان من ألمهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة، ومعينهم على الثاني لما ليس موجودًا في طبائعهم البشرية، ومظهر آياته على أيدي من يشاء من خلقه، لا إله سواه. والقبتان على قاعدة مستديرة من الحجارة العظيمة، قد قامت فوقها أرجل قصار ضخام من الحجارة الصمّ الكبار، وقد فتح بين كل رجل ورجل شمسية، واستدارت الشمسيات باستدارتها، والقبتان في رأي العين واحدة. وكُنِّيَنا عنها باثنتين لكون الواحدة جوف الأخرى والظاهر منها قبة الرصاص.

ومن جملة عجائب ما عايناه في هاتين القبتين أننا لم نجد فيهما

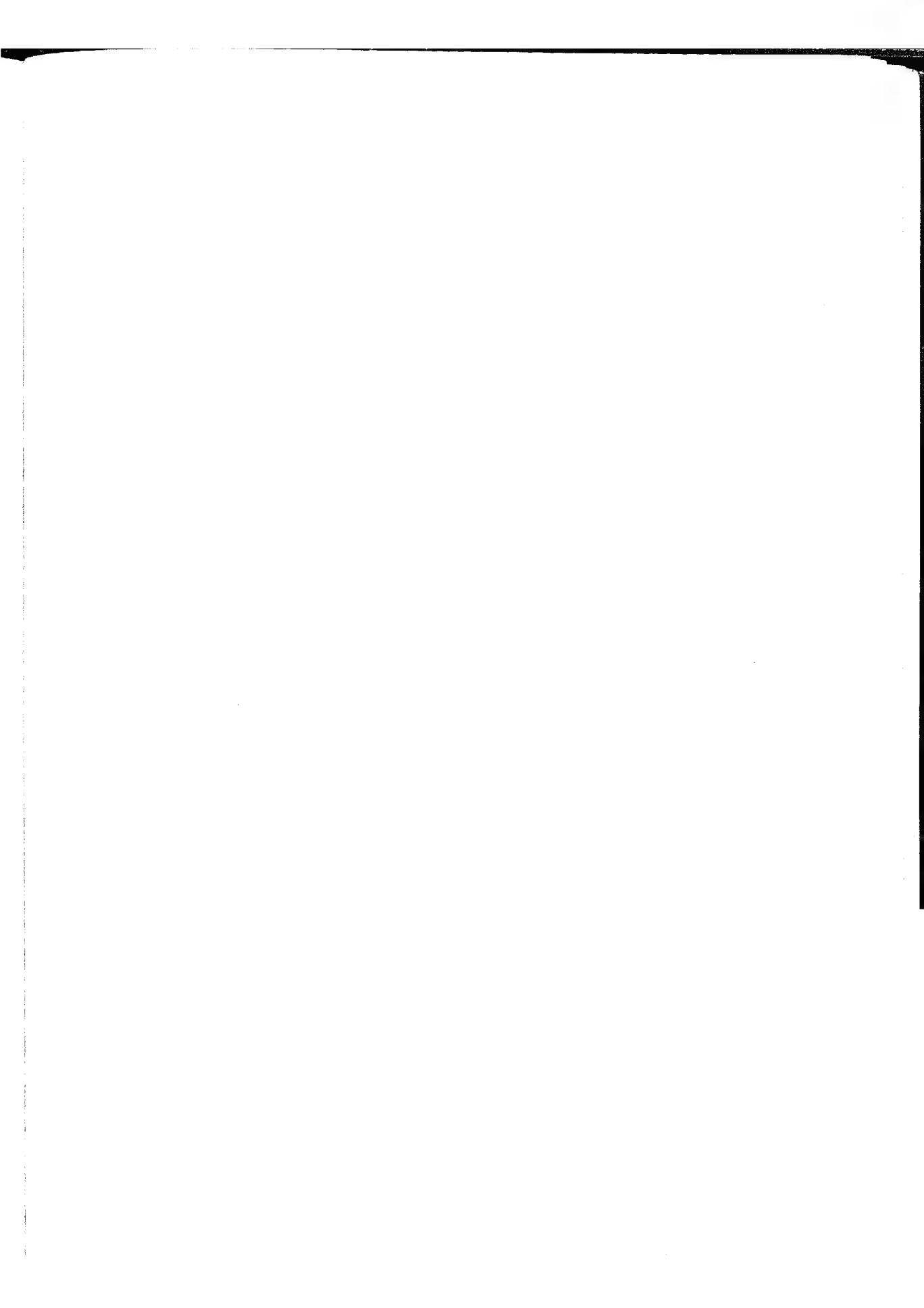
عنكبوتًا ناسيجاً، على بعد العهد من التفقد لهما من أحد، والتعهد لتنظيف مساحتهم. والعنكبوت في أمثلهما موجود كثير، وقد كان حق عندنا أن الجامع المكرم لا تنسج فيه العنكبوت ولا يدخله الطير المعروف بالخطاف.

وقد تقدم ذكرنا لذلك في هذا التقى، فانصرفا منحدرين، وقد قضينا عجباً عجباً من هذا المنظر العظيم.

الأموي في القرن الثامن:

وقد زار المسجد الرحالة ابن بطوطة، في أوائل القرن الثامن، ووصف المسجد، وليس في وصفه اختلاف كبير عن وصف ابن جبير.

— 1 —



حريق الآخر

أجدادنا الأولون كانوا أهل حزم وعزم، وكانوا أصحاب فكر وبيان، فكتبوا تاريخهم كله، وسجلوا أمجادهم ومعاיהם، وأخبار جدهم وهزلهم. فنحن نعرف عن القرون الأولى التي مرّ عليها أكثر من ألف سنة كل شيء، كأننا نعيش فيها، ونجهل من أخبار القرون الأخيرة كل شيء، لا سيما القرن الماضي.

وهذا أمر عجيب ولكنه الواقع.

وأنت إذا أردت أن تعرف قصة حريق الأموي مثلاً، لم تجدها في تاريخ من التواريخ، مع أن في دمشق مئات ممن شهدوها بعينه.

لذلك اعتمدت في هذا الحديث على ما حدثني به أستاذنا الأكبر الشيخ المعمر الجليل عبد المحسن أفندي الأسطوانى، وهو - حفظه الله - أعمدة العجائب، جاوز المئة^(١) من السنين ولا يزال في حيّته ذهنه وقوّة ذاكرته، وكثرة علمه، وسرعة بادرته، وحضور نكته كما كان في شبابه. وعلى ما حدثني به الشيخ حمدي الحلبي حفيد علامة الشام الشيخ سعيد الحلبي، وهو متولّي الجامع الآن ومن أعلم الناس بتاريخه

(١) جاوز الآن المئة والعشر ولا يزال ذهنه حاضراً، وذاكرته قوية، ولا يزال يُرجع إليه ويُستفتى مذ الله في عمره.

قلت: توفي رحمه الله عن مئة وثمانين عشرة سنة، ولم يضعف له فكر، ولا ذكرة.

وأحواله. كما اعتمدت على ما كتب العلامة الأستاذ الشيخ جمال الدين القاسمي، ومختار بك العظم رحمهم الله، وهي وصف مختصر جداً نشره الدكتور صلاح الدين المنجد، أحسن الله إليه بمقدار ما أحسن إلى قاريء دمشق وأثارها ومخطوطاتها.

وبعد فهذه هي القصة:

كانت صحوة يوم السبت رابع ربيع الثاني سنة ١٣١١ هـ (أي من نحو سبعين سنة قمرية)، وكانت دمشق آمنة مطمئنة، والناس منصرفون إلى أعمالهم في الأسواق المطيفة بالأموي، والنساء في بيتهن الحافة بالجامع، مما راعهم إلا صريح يصرخ، كأنه النذير العريان: أن لقد احترق الأموي، فترك التجار مخازنهم مفتوحة ووثبوا ينظرون، وصعد النساء على السطوح، وترافقن الناس من كل جهة، وإذا الدخان ينبعث من سقف الجامع، ولم يكن في دمشق مصلحة إطفاء (وقد أنشئت على أثر الحادث) وحار الناس ماذا يصنعون، فاستبّقوا إلى سجاد المسجد ومصاحفه يُخرجون ما يصلون إليه منها، وعمد بعضهم إلى الماء يصبّونه، وإلى المعاول عليهم يحصرون النار، ولكن النار كانت أسرع منهم، إذ كان خشب السقف قدّيماً جافاً، وعليه من الأصبغة والأدهان طبقات، مما شمّ رائحة النار حتى التهب كله دفعة واحدة، كأنما قد صب عليه البنزين، وكانت الرياح في ذلك اليوم غريبة شديدة، مما مرت نصف ساعة حتى صار السقف كله شعلة واحدة، وجعلت قطع النيران تساقط من كل مكان، فالتهب المسجد كله، ولم يعد أحد يستطيع أن يقترب منه، فوقفوا ينظرون وكأن النار التي تأكل مسجدهم تأكل قلوبهم، ولكن العجز أمسكهم وقيّدهم، وكانت عمد المسجد قديمة أكثرها مكسور ومربوط بأطواق الحديد، فتشقّقت من النار، ثم هوى البناء كله، وزلزلت الأرض، وكانت ساعة من ساعات الهول،

وامتدت النار تسوقها الرياح الغربية إلى سوق القباقبية والقوافين وزفاف المحماوي، وانجلى الدخان عن الخراب الشامل، لم يبق من الأموي إلا المشهدان عند باب البريد ورواق الصحن، عدا الرواق الممتد بين باب التوفة إلى مشهد الحسين، فقد ناله الحريق فتضعضع، وأصاب الحريق المنارة الغربية.

وأمامي الآن صورة نشرها الدكتور المنجد للأموي بعد الحريق، ما فيها إلا جدار الحرم الشمالي (من جهة الصحن) والواجهة المثلثة العالية، أما السقف كله والقبة فلم يبق منه أثر، ذهب المسجد كله في ساعتين ونصف الساعة، المسجد الذي أنفقت فيه الأموال والأعمار، وعملت في بنائه الأفكار والأيدي ألفاً وثلاثمائة سنة، ذهب كله في مئة وخمسين دقيقة فقط، ذهب في سبيل نارجيلة.

ذلك أن عاملًا من العمال كان يصلح رصاص السقف، في المعزبة الوسطى من الجهة الغربية، فأعجبه المنظر، وهاج في نفسه الشوق إلى نفس دخان، فجاء بنارجيلة وأودق ناراً ليشعلاها، فأشعل النار في الأموي.

خلت دمشق من مسجدها، ولكن ما خلت النفوس من إيمانها، وحط سقفه وجدرانه ولكن ما حط فرض الصلاة عن الناس، وماذا يضر المصلي إن هوت قبة المسجد وأمّحت روائعه وطمست نقوشه، ومسجد محمد الذي بُني على التقوى والذي كان مشرق النور على الدنيا ما كانت له قبة ولا كانت فيه نقوش، إنما هو سقيفة من اللِّبن والخشب، وماذا إن بقي بلا مسجد والأرض كلها للمسلم مسجد ومصلى.

لذلك كانت الفاجعة في الأموي الضحى، وأقيمت الصلاة في الأموي الظهر، أقيمت الصلاة، أقامها العالم الورع الشيخ عبد الحكيم

الأفغاني» في الصحن وراء البحرة والناس وراءه، فكانت النار لا تزال يقابها في أرجاء المسجد، وهم يركعون ويقولون: الله أكبر، الله أكبر من الجامع، فإذا ذهب الجامع فالله باق، والصلوة باقية، لا يشغل المؤمن عن صلاته شيء في الدنيا مهما كبر، لأن الصلاة لله، والله أكبر.

صلوا في الصحن، ثم عمدوا إلى المشهد الغربي الذي بقي سالماً، فنقلوا إليه بعض مفروشات الجامع، وأقاموا له منبراً صغيراً للخطابة، وعمروا سدة صغيرة للمؤذنين، وصارت تقام الجمعة فيه، وكان المشهد الثاني (المعروف اليوم بمشهد الغزي) وهو الآن بهو الاستقبال، مستودعاً للوازم الجامع، ففرغ ودُفِّف وفرش وفتح بابه القبلي، فصار المشهدان (القائمان على طرفي باب البريد) معديّن للصلوة، وكان المشهد الشرقي قد احترق كله، ومشهد الحسين قد احترق بعضه، فبذل الناس لصلاحهما، فجُددَا وأعدَا للصلوة قبل حلول شهر رمضان.

ثم انصرف الناس إلى تنظيف الجامع، وكان من الأنماض المتراءكة كأنه تل عظيم، وتناولوا على تنظيفه، يستغل أهل كل محلة يوماً، يجيئون جمياً كهولهم وشبابهم، أغنياؤهم وفقراءهم، يعملون بأيديهم إيماناً واحتساباً، ينقلون التراب والحجارة، ويتسابق الأغنياء إلى إطعامهم، فيتكلف أغنياء الحي بإعداد الطعام للعاملين، فيتغدون في المسجد، فكان ذلك مظهراً رائعاً للأخوة والبذل، وغدا الناس كأنهم أسرة واحدة، يعملون جميعاً في بيت الله، وينزلون ضيوفاً عليه، حتى إذا نُظِّفَ المسجد من الأنماض، أُلْفت في كل حي لجنة لجمع المال لعمارة المسجد، وهبَّت دمشق إحدى هباتها المؤمنة العجيبة، وتزاحم الناس على البذل، فمنهم من خرج عن ماله كله، ومنهم من أعطى

نصف ماله ، وكلّ ساعد بعقله وبفنه وبصناعته ، والفقير عمل مجاناً بيده ، وأنتم تذكرون ما صنعت دمشق في أسبوع التسلح القريب ، فكُبِروا ذلك عشر مرات تروا ما صنعت دمشق لبناء الجامع .

وكان الكشف وقدّرت نفقات البناء بسبعين ألف ليرة ذهبية ، وإذا نظرنا إلى القوة الشرائية لكل ليرة وجعلنا الخبز مقاييساً وحسبنا سعره يومئذ وسعره اليومرأينا المبلغ يعادل عشرين مليون ليرة من نقد هذه الأيام .

ونظروا فإذا الأعمدة التي كان يقوم عليها سقف الحرم قد تكسّرت ، وفكّروا في أعمدة جديدة ، واختلف الرأي فيها ، من أين يُؤتى بها وكيف تُنقل ، ثم أخذوا برأي السيد عبدالله الحموي ، فقرروا أن تقطع الأعمدة من جبال المِرْزا ، ولكن كيف يُؤتى بها؟ .

هنا تظهر عظمة هذا الرجل الذي لم يكن مهندساً ولم يكن متعلماً .

لقد عرض عليهم أن يعمل عربة مستطيلة واطية تجرّها الشيران ، لها ملاقيط من تحتها فهي تلتقط العمود ، وتحمله من المزة إلى المسجد ، وشكّوا في ذلك ، فخبرّهم أنه رأى مثلها في مقاطع الحجارة في إيطاليا ، فأقرّوه على صنعها ، فصنعت بإرشاده ، وصارت تحمل العمود الهائل من الأعمدة القائمة اليوم في الأموي وتأتي به يحف بها الناس والشباب بالعراضات والأهازيج .

ولما وصل العمود الأول وشكّرت اللجنة للسيد الحموي ما صنع ، ضحك وقال لهم: أخبركم الآن بالحقيقة ، أنا لم أر مثل هذه العربة في إيطاليا ، ولا ذهبت إليها ولا إلى غيرها ، ولكنني خفت أن أقول لكم: إنها من اختراعي ، فلا تقبلوها مني فزعمت أنني رأيتها في إيطاليا .

وهذه العربة لا تزال موجودة، أرجو أن تُوضع في المتحف،
لتُعرض دليلاً على العبرية الشامية.

وشُرع في البناء سنة ١٣١٤ هـ ولم يبق في دمشق صاحب فن إلا وضع فنه في عمارة المسجد، ولا عامل إلا قصر عمله على المسجد، وكان يشتغل فيه كل يوم أكثر من خمسينه عامل، فما مرت ستة أشهر حتى أُنجز بناء النصف الشرقي من المسجد وُفرش بالسجاد وُعلقت فيه الثريّات والمصابيح وأُقيم حاجز من الخشب من غربيه وُوضع المنبر إلى جنب محراب المالكية، وافتتح في رمضان سنة ١٣١٦ هـ في حفلة ضخمة حضرها الوالي والعلماء والوجهاء.

ثم بُدئ بالقسم الآخر، وكان أول ما بُني منه محراب الحنفية، وزخرفوه هذه الزخرفة التي تُرى الآن وبلغت نفقات بناء المحراب كما خبرني الأستاذ الأسطواني ألف ليرة ذهبية، وقد لام الناس اللجة على البداعة به، فاحتاجت بأنه لو لم يُبدأ به لما بُني.

وتم بناء القسم الأوسط من المسجد في منتصف شعبان سنة ١٣١٨، واكتمل البناء كله واحتفل بافتتاحه في ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٠، بعد الحريق بتسعة سنين فقط.

وبعد، يا أيها القراء، فإن هذا المسجد العظيم الذي يقطع السياح نصف كره الأرض ليشاهدوه ويعجبو من عظمته وجلاله، وهذه القبة الساقمة التي لا يطأوها بناء في دمشق، بل تبدو العمارات معها كالصبية الصغار مع الرجل الطوال، وهذا الزخرف وهذا الجمال، كله من صنع أهل دمشق، أنفقوا عليه من أموالهم، وعملوه بأيديهم، وإن الذين هندسوا وعمروه كانوا جماعة من التجاريين الشاميين الذين لم يدرسوا في مدرسة ولم ينالوا شهادة في الهندسة، الحموي ومعاونه والتوما وملخص

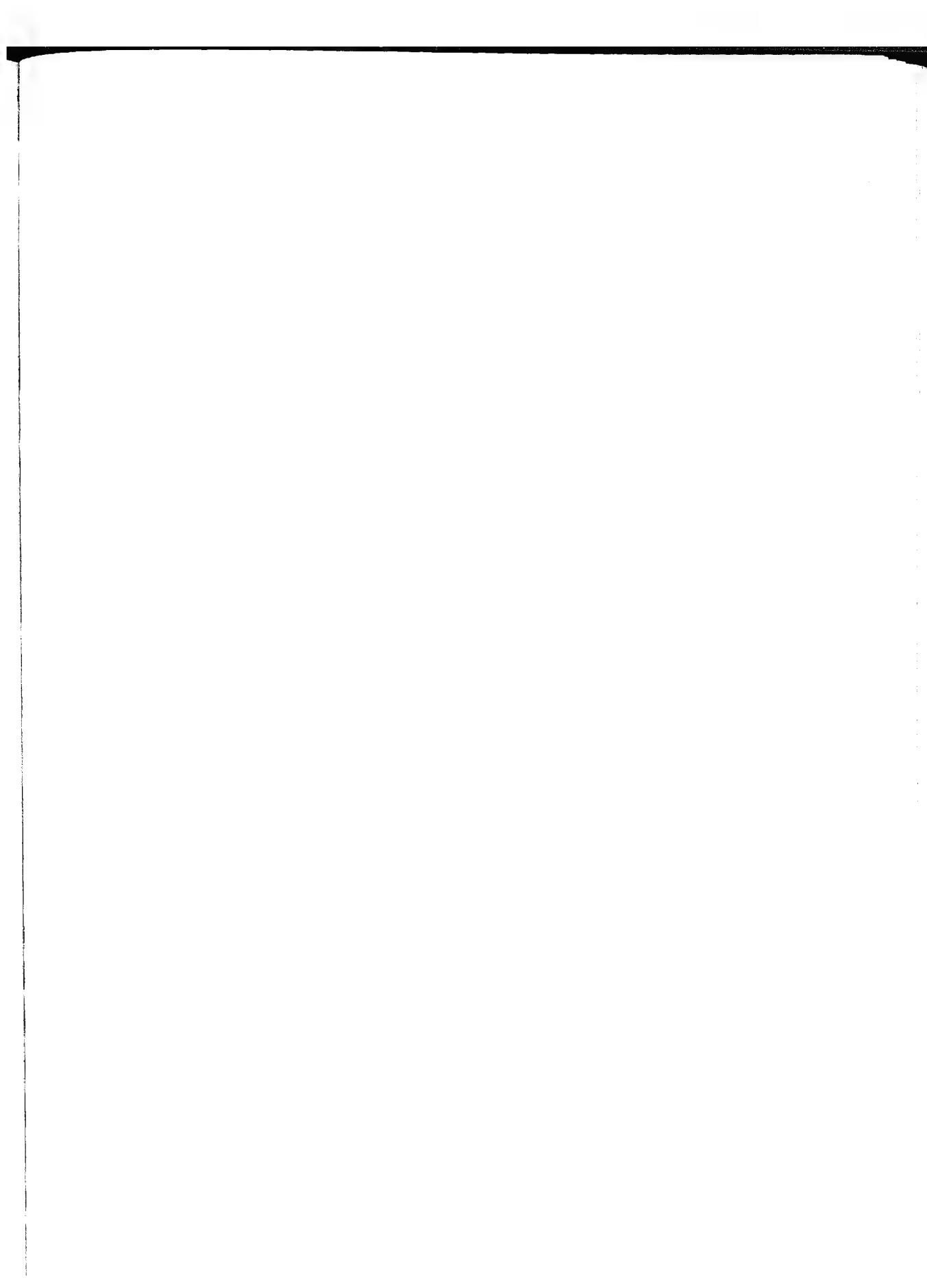
وإخوانهم، وإن الذين نقشوه هذا النقش البارع الذي جاء على مثال النقش القديم وأربى عليه هم أولاد أبي نجيب الدهان الشامي العامي، وأنهم هم الذين صنعوا هذه الشبابيك العجيبة الثلاثة التي هي فوق المحراب، والثلاثة المقابلة لها.

لقد بنت دمشق هذا المسجد العظيم على قلة العلم يومئذ، وضعف الأدوات، وفقد الآلات، ليقوم دليلاً على أن الإيمان والإخلاص يصنعان كل شيء.

فإذا شككتم في أن الإيمان يعمل العجائب ويأتي بالخوارق، فهاكم قبة الأموي قائمة تنطق، شاهدة بأن الإيمان قوة تدحر القوى، وكنز يزري بالكنوز.

ورحمة الله وتحياته وبركاته على كل من شارك بسلطانه أو بيده أو بفكه في إقامة هذا الصرح المبارك، من لدن معاوية والوليد إلى يوم الناس هذا، وعلى كل من سيعمل فيه في الأيام القادمة، وجراهم الله جميعاً خير الجزاء.

* * *



الإصلاحات الجديدة

تقرير من مهندس الأوقاف
السيد مكين المؤيد

إن الفترة التي نؤرخ لها الآن تنحصر فيما بين عام ١٩١٩ ميلادية
وعام ١٩٥٩^(١)، أي ابتداءً من انتهاء الحرب العالمية الأولى.

ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحل: المرحلة الأولى وتبتدئ من
عام ١٩١٩ لغاية عام ١٩٤٠، والمرحلة الثانية وتبتدئ من عام ١٩٤١
لغاية عام ١٩٤٩، والمرحلة الثالثة وتبتدئ من عام ١٩٥٠ لغاية عام
١٩٥٩.

المرحلة الأولى:

جرت إصلاحات المرحلة الأولى بمعروفة دائرة الأوقاف وإشراف
القائم بالنظرارة على الجامع، وقد بلغت تكاليف هذه الإصلاحات نحو
من ألفي ليرة عثمانية ذهبية، ومن أهم الأعمال التي تمت خلال هذه
المدة: تبليط باحثي مدخل بابي البريد والنوفرة الداخليّين بالرخام
وترخييم جدران باب البريد، وتركيب البلاط القاشاني، وتبديل العمود
الكبير في باحة الأموي في الجهة الشرقية الشمالية، وإصلاح المنارة
الغربيّة، إذ رُممَت الدرابزينات وجدد الهلال النحاسي، وتركيب سطرين
من القاشاني المنقول من قبة الوزير (أقوش النجبي) في السوقة، فوق
محراب الحرم الكبير، يتضمنان آيات قرآنية من سورة الرحمن، ونزع

(١) وهي ستة طبع هذا الكتاب، أما ما جدّ بعدها فلا أعرف عنه إلا القليل، لأنني أقيم
في مكة المكرمة من أكثر من ربع قرن.

الكلسة عن الفسيفساء، وإكمال النواصص في مدخل باب البريد، والرواق الغربي، وعمل مجاري الماء في الجملونات (سطح الحرم) من (بيتون) مسلح، بدلاً عن مجاري الرصاص التي كانت ترشح منها المياه إلى خشب السقف، وإصلاح الرخام المشقق في محراب الشافعي، وتبطيط القسم الشرقي من أرض باحة الصحن ببلاط أحمر مزي.

المرحلة الثانية:

اشتركت في الإصلاحات في هذه الفترة دائرة الأوقاف ومديرية الآثار، وقد بلغت تكاليفها مئة ألف ليرة سورية تقريرياً، وهذه أهم الأعمال التي تمت خلال هذه الفترة:

في عام ١٩٤١ تم فك القسم العلوي من المثمن المتندع من منارة سيدنا عيسى (أي الشرقية)، وإعادته مجدداً كالسابق، وتم ترميم وتصليح وتكحيل القسم السفلي من بقية المنارة، وجددت الدرازينات الخشبية، وفي عام ١٩٤٢ تم إصلاح الفسيفساء الآيل للسقوط في قوس الزاوية الشمالية الغربية، ومن عام ١٩٤٣ لغاية عام ١٩٤٧ تمت الأعمال الآتية:

أ - بعد تدعيم الجدران وتأمين الأخطار وتعليق الأقواس العلوية والسفلى في الباحة، من جدار الرواق الشمالي لجهة الشرق، فك القسم الأول المتداعي المائل.

ب - فك العضادة الحجرية المتندعة، والأقواس في الزاوية الشرقية، وكشف سقف الرواق الخشبي، وفك الأحجار العاطلة من أساسات الجدران.

ج - أعيد البناء كما كان بعد إزالة الأحجار المفتتة والمتصدعة والعاطلة، وأعيدت العضادة والأقواس، وجرى تركيب العمود السفلي

الكبير مجدداً بدلاً عن القديم البالي. كما جرى تبديل العمود العلوي الصغير مجدداً بدلاً عن القديم.

ثم فكَّ القسم الثاني المتتصدِع من الجدار الشمالي المذكور، ثم أعيد بناؤه من جديد.

وأخيراً فكَّ القسم الثالث من الجدار المذكور الواقع خلف الرواق عند بيت المؤذنين، وأزيل القسم العاطل منه، وأعيد مجدداً بعد ترميم وتصليح الأساسات.

ومن ١٩٤٨ إلى ١٩٤٩ تمت الإصلاحات الآتية:

كشف قسم من الممرّ الذي عثر عليه تحت باحة باب التوفة الخارجية، وتحرر من الردم وأصلحت جدرانه وسقفه، وتم هدم الجدار الخارجي الواقع جنوبى مدخل التوفة، نظراً لتصدعه وأعيد بناؤه مجدداً، ثم جرى إصلاح الجدار المقابل الواقع شمالي مدخل التوفة خلف مشهد الحسين وتم تكميله، ورممت الواجهة الخارجية لمدخل التوفة وكُحلت بالإسمنت، وأخيراً جددت الأعمدة الأربع المتتصدعة في الزاوية الشمالية الغربية للرواق مع قواعدها.

المراحل الثالثة:

وتبدىء من ١٩٥٠ إلى نهاية ١٩٥٩، وأعمال هذه الفترة جرت بمعرفة مديرية الأوقاف في دمشق، وتحت إشراف مديرية الآثار، وقد بلغت تكاليفها ٣٦٥ ألف ليرة تقريباً، ومن أهم الأعمال التي تمت خلال هذه الفترة الأعمال الآتية:

في عام ١٩٥٠ هدم جدار المشهد الشرقي للحرم (الشهير بالسفرجلاني) المتتصدِع من جراء الحرائق وأعيد بناؤه مجدداً مع تجديد

أساساته، ثم جرى تبليط أرض المشهد المذكور، وأصلح محرابه، وأنشئ به موضعاً وخزان للمياه.

وفي عام ١٩٥١ فكت الأقواس الثلاثة العاطلة في الرواق الشمالي القسم الشرقي منه، وأبدل العمودان الحجريان العاطلان بعمودين كبيرين وتم تجديد الأساسات، ثم أعيدت الأقواس وما فوقها، وجرى تجديد البابين الخشبيين في مدخل النوفرة، وأعيدت الزخارف النحاسية وأكملت نوافصها، وجرى تصليح الباب الكبير الوسطاني.

وفي عام ١٩٥٢ عملت ترسos خشبية مزخرفة مع البلور الملون في قوس باب النوفرة، وباب المسكية الكبيرين، وأعيد سقف القسم المتهي إصلاحه من الرواق الشمالي، وذلك من خشب مجدد، ورصاص من صبه مجدداً مع الدهان الزياتي كالأصل، وأعيد الفسيفساء إلى الأقواس الثلاثة، وأعيد محراب مشهد الدخولية (الغزي) المتهدل من خيوط عربية رخامية كالسابق، وأعيد إصلاح المشقف في محراب المالكي ضمن الحرم.

وفي عام ١٩٥٣ فكت الأقواس العلوية المزدوجة الثلاثة في الرواق الشرقي، وجرى تبديل العمودين الصغيرين العاطلين، ثم أعيدت الأقواس كالسابق تماماً، ثم نُزعت كلسة الجدران في رواق مشهد الحسين من جهة الباحة، وأصلحت أماكن العطل المتعددة، وصُبّت عتبات التوافد بالإسمنت وجدد منجورها، وجرى تبليط أرض مشهد الوضوء.

وفي عام ١٩٥٤ أكمل نزع كلس جدران الرواق والأقواس وأُغيَّت نهائياً، وأظهر الحجر الطبيعي بعد لقطه وتكحيل فواصله، وذهبت أسقف الأروقة بالدهان الزياتي، وجُدد باب العمارة الخشبي العاطل وأُعيد إليه زخرفة النحاس وأكملت نوافصه. أصلحت عضادات الرواق

الشمالي المنقوشة كالأصل، وتم إصلاح مئذنة التوقيت بجانب منارة العروس، وتم تبليط الباحة الخارجية أمام مدخل النوفرة من رخام وحجر أسود وشعيره حجرية، وجُددت نوازل المطرية من الجهة الشرقية من بواري حديد عوضاً عن قساطل الفخار البالية، وجرى تبديل عمود (غرانيت) الكبير المتتصدّع والمقيّد بطوق حديدي بعمود آخر نقل من جامع تنكر.

وفي عام ١٩٥٥ تم تبديل عمودين كبيرين عاطلين في الرواق الغربي بعمودين (غرانيت)، كالذى تم في عام ١٩٥٤ سابقاً، أحدهما أخذ من أرض الصحن، والثانى جلب من اللاذقية، وجُددت القواعد الحجرية لهذه الأعمدة بعد تجديد الأساسات، وتم إصلاح فسيفساء بعض أقواس الرواق الغربي وأكملت نوافذه. وأكمل بناء القسم العلوي من الزاوية الشمالية الغربية من الرواق. وجُدد السقف الخشبي العاطل من مشهد الوضوء وصُبّ البيتون المسلح بظهر السطح، ودهن السقف الخشبي المذكور بدهان زيتى. وجُددت ستة أعمدة صغيرة في القسم العلوي من الرواق.

وفي عام ١٩٥٦ تم إصلاح الرخام المشقّف والمزخرف الكائن في العضادة الشمالية من باب البريد وأكملت نوافذه، وتم تجديد نوازل المطرية في القسم الغربي عوضاً عن السيالات الفخارية البالية، وتم تكليس واجهة باب البريد الخارجية، وتم تكميل القسم الحجري بالإسمنت، وتم تطبيق جفت الحرم جهة الصحن، مع صب بيتون مسلح ودهان زيتى للجفت المذكور، مع متابعة تصليح الفسيفساء العاطل.

وفي عام ١٩٥٧ فك الرخام المزخرف المشرف على السقوط والمشوّه في جدران مدخل باب النوفرة الداخلية، وأعيد بصورة منسقة

بعد إبعاد العاطل منه والاستعاضة بالرخام المجدد، وتم فتح الباب الذي وُجد مخفياً تحت الرخام القديم، وهو باب صغير لجهة مقام الحسين، وتم تجديد البابين الجانبيين لمدخل باب البريد من خشب مجدد، وأعيدت الزخارف النحاسية والنقوش الأثرية وأكملت النواصي مجدداً، وتم إصلاح وترميم السالم الحجرية في المناور الثلاثة، وفكّت الآيات القرآنية المنقوشة في الحجر في جدار الرواق الغربي، وأعيد تركيبها وأكملت نواصيها مع المحافظة على وضعها الأثري، وأصلحت قبة (الخزنة) الغربية مع تكميلها بالإسمنت، وتزييقها بالكلس والمونة وصُبّت ألواح رصاصية متجددّة لسطحها الخارجيّة.

وفي عام ١٩٥٨ تم متابعة إصلاح الفسيفساء العاطل في أقواس الرواق الغربي، وتم إصلاح الباب الخشبي الأثري الكبير في مدخل باب البريد، وبعد حذف العاطل منه من (خشب أو نحاس) أعيد كما كان في السابق، حيث أعيدت إليه الزخارف والنقوش والخيوط النحاسية، وتم إصلاح مدخل الكلاسة، وتم نصب السقاليل في مدخل باب البريد، وبوشر بإصلاح الدهان الزيتاني العربي المزخرف في سقف المدخل، حيث قد عفى عليه الزمن، وغطي بطبقة كثيفة، أحالت لونه حتى أصبح مكمداً من جراء رشح مياه الأمطار، وتم متابعة فك أقسام الفسيفساء الآيل للسقوط، في منطقة باب البريد القسم العلوي، وإعادتها بعد إكمال نواصيها كما كانت، وتم إصلاح خشب سقف منطقة مدخل باب البريد، وجدد صب رصاص السطح، وصبت مجاري مسلحة من إسمنت، وعملت زرقة داخلية لسقف المدخل (زلحفة) سلحفاة لمنع دلف المياه تهائياً، وقد أبدل العمودان الصغيران في القسم العلوي في مدخل باب البريد.

وفي عام ١٩٥٩ متابعة في الدهان الزيتاني لسقف باب البريد،

ومتابعة في إصلاح وترميم وإكمال فسيفساء المكان المذكور الآيل للسقوط.

وأثناء سير العمل نَفَدَت قطع الفسيفساء المتوفرة في الأموي والمجموعة في المستودع من بقايا القطع المتتساقطة قديماً من الجدران، وكادت أن تتوقف أعمال إصلاح الفسيفساء من جراء فقدان القطع (خرزات)، ورغم التحري في المدينة عن إمكانية صنعه حديثاً، ومخابرة الدول الغربية عن طريق مديرية الآثار، لم تفلح المساعي ولم تؤدِّ إلى نتيجة مفيدة، فضمنت مديرية الأوقاف إنتاجاً محلياً بواسطة خبراء محليين، وبعد جهود كبيرة تم إنشاء معمل زجاجي صغير، وأنشئت ورشة فنية تمكّنت من إنتاج فسيفساء مجدد مماثل للقديم (البلور فقط)، ولا تزال المساعي مستمرة لإنتاج فسيفساء من البلور المطلية بالذهب والفضة. هذا وإن قطع الفسيفساء هي عبارة عن قطع بلورية خاصة الصنع ومختلفة الألوان، وقطع بلورية أخرى مطلية بالذهب والفضة، وقطع رخامية ملونة، ولا يتجاوز قياس القطعة أي الخرزة 1×1 س.م. وإن المساعي التي تُبذل لإنتاج جميع أنواع الفسيفساء تبشر بالنجاح قريباً.

ومن الأعمال التي هي قيد العمل الآن توضيب وتحضير قواعد وأعمدة قبة التوقيت، لإعادتها لشكلها الأثري القديم، وإزالة الغلاف الحجري التركي الذي أنسى حولها.

وختاماً: يتضح من موجز الأعمال الجارية بأن جامع الأموي كان بحاجة لإصلاحات ضرورية جداً، خصوصاً في القسم الشمالي منه، أي في الصحن والأروقة والمشاهد، وقد أزيل العطل والخطر من كافة الجهات المتصدعة، وبقي إجراء الأعمال المتممة، والتي لم تعد تتعلق في متناء البناء، وأهمها إصلاح الفسيفساء في كافة أنحاء الجامع،

وأكثرها ضرورةً الموجود في باب السنجق، وإصلاح محاريب الحرم، حيث تضررت من الرطوبة، والسدة ودهانها الزياتي العجمي، وتبيط أرض الصحن، والأروقة، وخلافها من الأعمال التكميلية، كالزخارف الخامية والخشبية والجصية.

وتقدر تكاليف هذه الأعمال بمبلغ مليون ونصف المليون ليرة سورية، هذا عدا عن تكاليف مشروع تحرير حول الأموي، الذي هو قيد الدراسة لدى أمانة العاصمة.

* * *

خاتمة

تبين أن حرائق الأموي كلها (إلا الأخير منها) إنما امتدت إليه من البيوت الملاصقة له، التي تستر جماله، وتحفي عظمته، وتشوه منظره، وتعرضه للخطر، مع أنه لا يتصل به الآن من جهة الحرم إلا دكاكين واطية من الخشب واللِّبِن، لا تتكلف إزالتها إلا القليل، هي دكاكين الحذائين في السوق الضيق^(١)، ودكاكين (القبابية) التي توقد فيها النار طول النهار، فإذا أُزيلت انكشف سور الحرم كله، وظهر الباب القبلي القديم، وهذا الاقتراح الأول.

الثاني - أن لكل باب من الأبواب دهليزاً، وأكبرها ما كان من جهة النوفرة، وقد كشف من سنيين بالمصادفة أن درج النوفرة لم يُبن على أرض حرة، بل إن تحته قاعة مبنية، فلو حول الطريق بعد إزالة دكاكين القبابية، حتى امتد موازيأً للجدار القبلي، وأُزيلت أدراج النوفرة وأُظهرت هذه القاعة، وجعل لها باب ليزورها السياح والناس، لكان منها منفعة للدارس وموارد للدولة.

ولقد كان من الشائع أن تحت الأموي معبداً للصابئة، ذكر ذلك ابن تيمية في بعض كتبه، والصابئة قد تطلق على طوائف من الوثنيين

(١) كلمة السوق مؤنثة ويجوز تذكيرها، والدرج جمع درجة وهي مؤنثة ولكنني اتبعت الاستعمال الشائع.

كأصحاب المعبد الأول، فإذا امتد الحفر من تحت الدرج، ظهر المعبد، كما ظهر بالمصادفة، من سين، أن تحت جامع بيروت جاماً آخر وأن تحت كل عمود عموداً آخر.

الثالث - وهذا طلب بعيد الإجابة، هو أن دمشق أقدم المدن المسكونة اليوم على ظهر الأرض، لا خلاف في هذا، وكلما حفر أرضها للبناء أو للمجاري ظهرت آثار مطمورة، من أحدث ما ظهر منها الأعمدة التي كشف عنها في طريق الباب الشرقي، وأخطأت دائرة الآثار فرفعتها فجعلتها فوق الأرض، مع أن الواجب تركها على العمق الذي ظهرت فيه ليتبين ما طرأ على أرض المدينة من ارتفاع.

إذا كانت الحفريات قد أظهرت في مدينة بابل ثلاث مدن بعضها فوق بعض (رأيت ذلك بعيني)، فإن دمشق إن اقتطعت منطقة منها كالمنطقة التي بين نهاية ما فتح من شارع معاوية والباب الشرقي والسور الجنوبي وأخلت وأجريت فيها حفريات لظهرت ست مدن بعضها فوق بعض، وتغيرت دراسة التاريخ القديم، ولكن من ذلك أعظم منطقة أثرية في العالم، وكان لنا منه مورد مالي لا ينقطع، ولوجدنا تحفًا وكنوزًا لا تقدر قيمتها.

وليسأ الحفر من الخراب، ومعلوم أن هذه البقعة سميت بـ(الخراب) لأنها تخربت على عهد تيمورلنك لا جزاء الله خيراً، وأنها تظهر صحون الدور القديمة ويرتكها بأقل حفر يكون فيها.

وتحت ذلك طبقات إسلامية، ثم طبقة رومانية، ثم طبقات، الله أعلم بها.

والرابعة - أن يفتح من باب الأموي شارع مستقيم إلى ظاهر البلد، وأقرب وسيلة إلى ذلك هي شق الطريق من باب العمارة إلى شارع

بغداد، وأكثره مفتوح، والبيوت الباقية في طريقه من البيوت الرخيفة، وفي فتحه نفع لتلك الأحياء، وما يؤخذ من المالكين من (رسم الشرفية) يقوم بنفقات الفتح ويعطى أرباب البيوت المهدومة بدلاً منها في المساكن الشعبية، كما كان عند فتح شارع البحصة.

وأناأشكر الأستاذ عبد الرحمن الطباع الأمين العام لوزارة الأوقاف أن أشار بتأليف هذا الكتاب، وللأستاذ ظهير الكزبرى مفتشها العام أن أشرف على إخراجه.

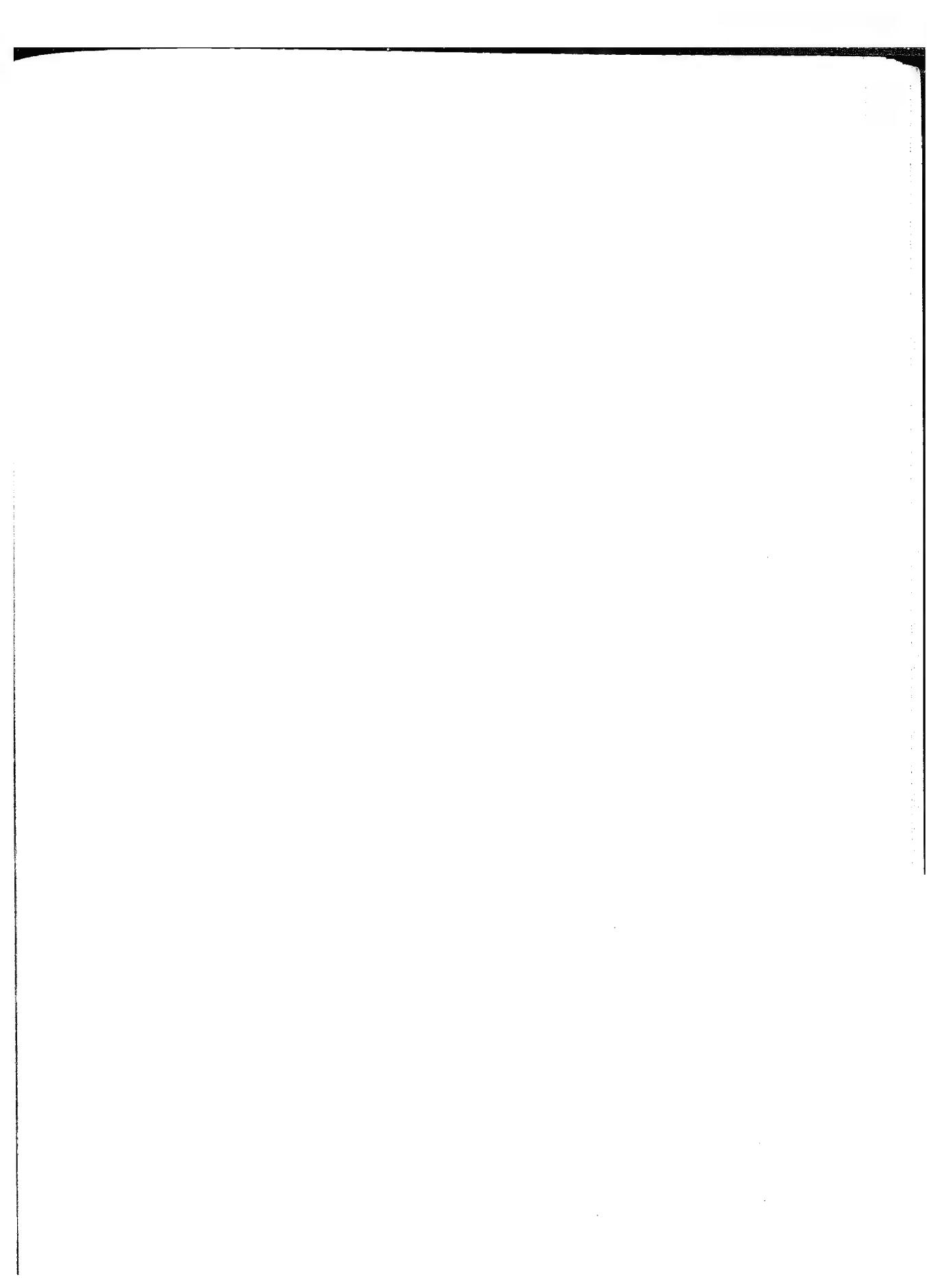
وأشكر الأستاذين عبد القادر العاني وحمدي الحلبي على ما أمداني به من أخبار المسجد في عهده الأخير التي لم يدونها التاريخ.
وأشكر الأستاذين صلاح الدين المنجد ومحمد أحمد دهمان على ما استفدتته من مباحثهما ومنشوراتهما.

وأشكر الأستاذين عبد القادر الريحاوي مفتش الآثار، وأبا الفرج العش على نظرهما في الكتاب، وعلى ما أبدياه من ملاحظات.

وأشكر كل من يتفضل فيدلني على نقص فيه، أو يرشدني إلى خطأ لا سيما في الأرقام التي لا آمن عليها التحريف عند الطبع.
والحمد لله من قبل ومن بعد.

* * *

حاشية: وقف الدكتور صلاح الدين المنجد على (ضبط التحقيق) في حريق الأموي سنة ٧٤٠ محفوظ في جامعة ليدن، قدم لها مقدمة قيمة ونشرها في مجلة المجمع العلميالجزء (١) المجلد (٣١) ثم أفردها برسالة على حدة فليطلع عليها من شاء الوقوف على أسرارها.



الفهرس

٥	- مقدمة هذه الطبعة
٧	- مقدمة الطبعة الأولى
١٣	- حياة الأموي
١٧	- جولة في الأموي
١٧	السُّور والدهاليز
١٧	مداخل الأموي
١٨	النوفرة
١٩	أبواب الأموي
٢٠	خلع النعال
٢٣	- في صحن الأموي
٢٤	القباب
٢٥	البلاط
٢٧	- في الحَرَم
٢٨	القبر
٣١	- عمارة الأموي
٣٤	هندسة الأموي
٣٥	بناء القبة
٣٥	هدية اليهودية

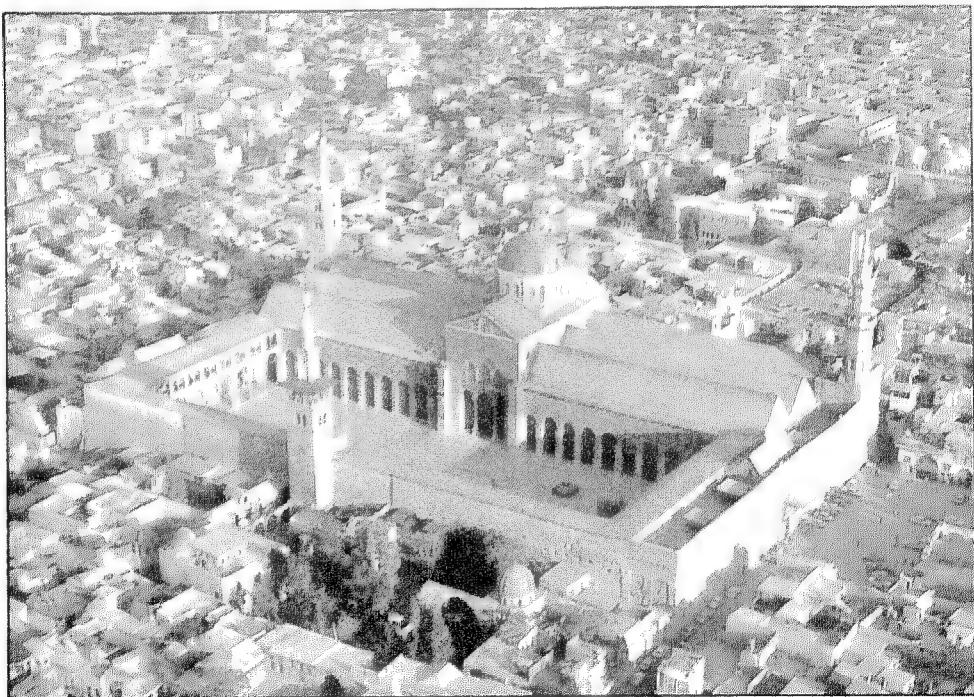
٣٦	الأروقة والفسيسيسae
٣٧	القناديل
٣٧	نفقات البناء
٣٨	صفائح التاريخ
٣٨	النصارى والأموي
٣٩	عمر وزخارف الأموي
٤٣	- أطوار الأموي وأحداثه
٤٣	الحرائق والزلزال
٤٥	إصلاحات في الأموي
٤٦	القبة
٤٦	المآذن
٤٧	المشاهد
٤٨	الرخام والفسيسيسae
٤٩	- من أخبار الأموي
٥١	- الأموي في أواخر القرن السادس عشر الهجري
٥١	مساحته
٥١	أعمدته
٥٢	أروقة الصحن
٥٢	قبابه
٥٢	صورة النسر
٥٢	شمسياته
٥٣	المقاصير
٥٣	الزوايا
٥٤	أبواب الصحن
٥٤	الشاميون والجامع

٥٤	المآذن
٥٤	باب الصحن
٥٥	المشاهد
٥٥	زخارف الجامع
٥٦	القبلة والمحراب
٥٦	أبواب الجامع
٥٦	الدهليز الشرقي
٥٧	الفواره
٥٧	الساعة
٥٨	الدهليز الغربي
٥٨	الدهليز الشمالي
٥٩	القراء
٥٩	الحلقات والدروس
٦٠	مظاهر الجامع
٦٠	قبر يحيى
٦٠	* صعوده إلى القبة
٦٣	* الأموي في القرن الثامن
٦٥	- الحريق الأخير
٧٣	- الإصلاحات الجديدة
٨١	- خاتمة

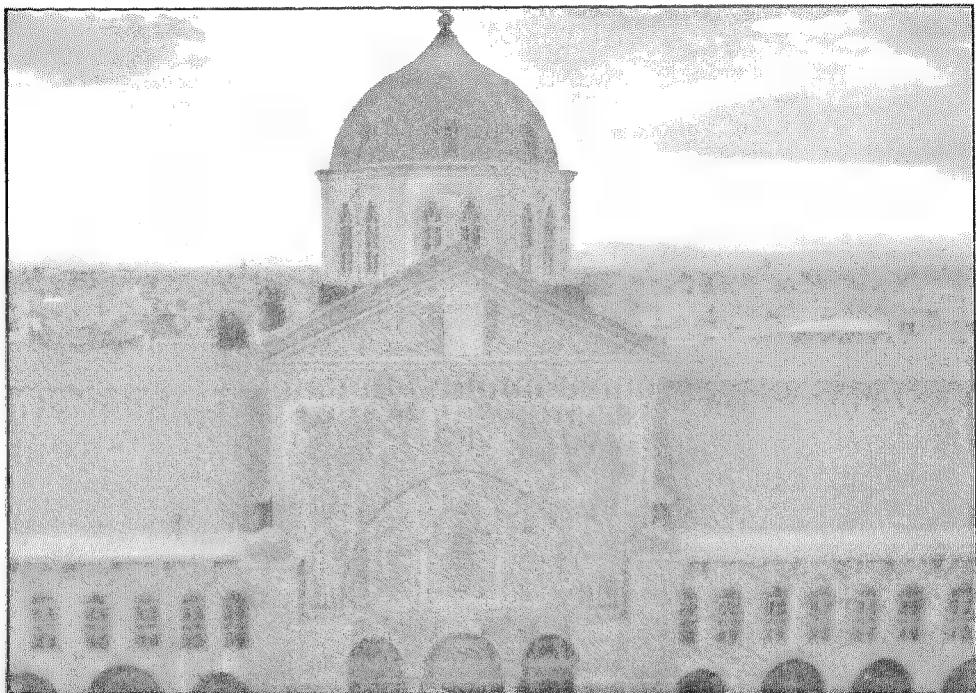
مِنْ آثَارِ الْمُؤْلِفِ

١٩٨١ م	٢٢ - من حديث النفس	١٣٤٨ هـ	١ - رسائل الإصلاح
١٩٦٠ م	٢٣ - الجامع الأموي	١٣٤٨ هـ	٢ - بشار بن برد
١٩٦٠ م	٢٤ - في أندونيسيا	١٣٤٩ هـ	٣ - رسائل سيف الإسلام
١٩٦٠ م	٢٥ - فصول إسلامية	١٣٤٩ هـ	٤ - الهيئيات
١٩٧٨ م	٢٦ - صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق)	١٣٥٣ هـ	٥ - في التحليل الأدبي
١٩٦٠ م	٢٧ - فكر ومباحث	١٣٥٢ هـ	٦ - عمر بن الخطاب - جزآن
١٩٦٠ م	٢٨ - مع الناس	١٣٥٥ هـ	٧ - كتاب المحفوظات
١٩٦٠ م	٢٩ - بغداد	١٩٣٩ هـ	٨ - في بلاد العرب
١٩٧٩ م	٣٠ - سلسلة أعلام التاريخ	١٩٨٦ م	٩ - من التاريخ الإسلامي
١٩٨٦ م	٣١ - فتاوى علي الطنطاوي	١٩٨٣ م	١٠ - أبو بكر الصديق
١٩٨٥ م	٣٢ - ذكريات علي الطنطاوي ج ١	١٩٨٦ م	١١ - قصص من التاريخ
١٩٨٥ م	٣٣ - ذكريات علي الطنطاوي ج ٢	١٩٨٢ م	١٢ - رجال من التاريخ
١٩٨٦ م	٣٤ - ذكريات علي الطنطاوي ج ٣	١٩٨٠ م	١٣ - صور وخواطر
١٩٨٦ م	٣٥ - ذكريات علي الطنطاوي ج ٤	١٩٥٩ م	١٤ - قصص من الحياة
١٩٨٧ م	٣٦ - ذكريات علي الطنطاوي ج ٥	١٩٥٩ م	١٥ - في سبيل الإصلاح
١٩٨٨ م	٣٧ - ذكريات علي الطنطاوي ج ٦	١٩٨٣ م	١٦ - دمشق
١٩٨٩ م	٣٨ - ذكريات علي الطنطاوي ج ٧	١٩٥٩ م	١٧ - أخبار عمر
١٩٨٩ م	٣٩ - ذكريات علي الطنطاوي ج ٨	١٩٨٠ م	١٨ - مقالات في كلمات
١٩٧٤ م	٤٠ - تعريف عام بدين الإسلام	١٩٦٠ م	١٩ - من نفحات الحرم
			٢٠ - سلسلة حكايات من التاريخ
			٢١ - هتاف المجد

وله مئات من البحوث والمقالات في عشرات من الصحف والمجلات



منظر الأموي من الطيارة



قبة النسر



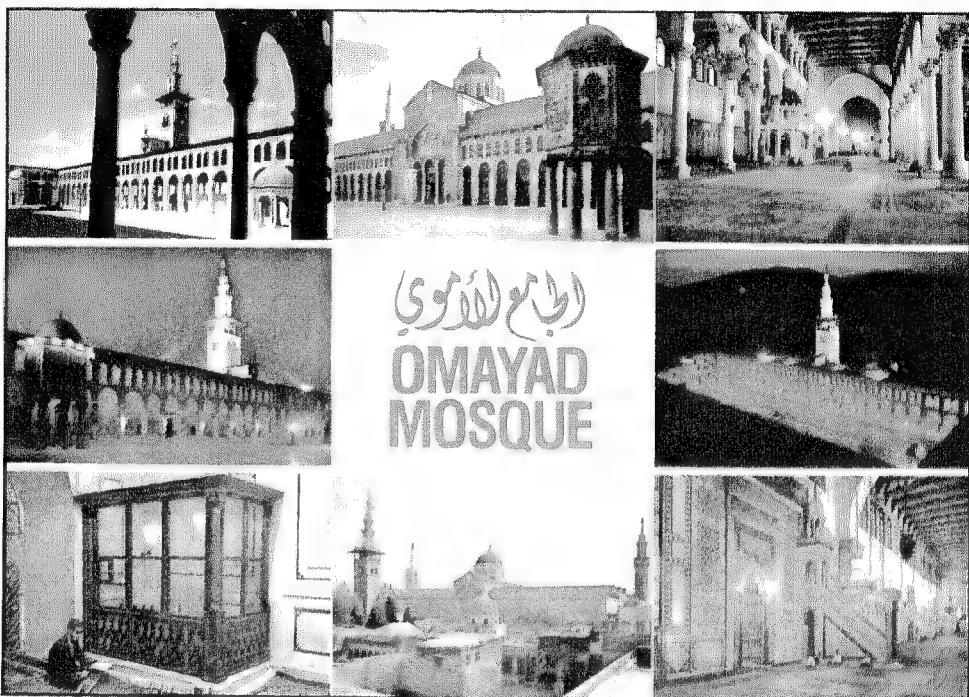
القبر والبلطة الوسطى في الحرم



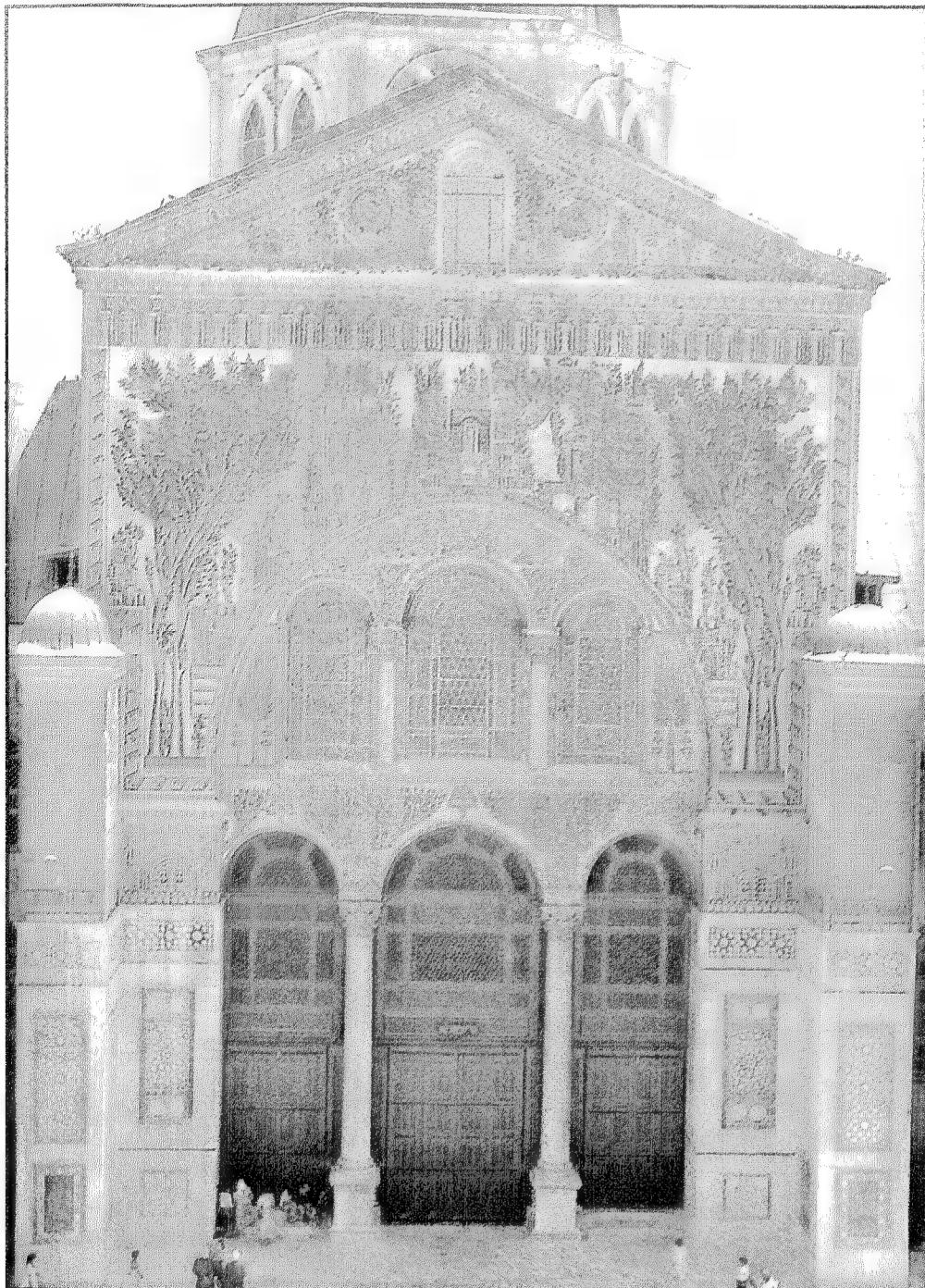
المنبر والمحراب الكبير



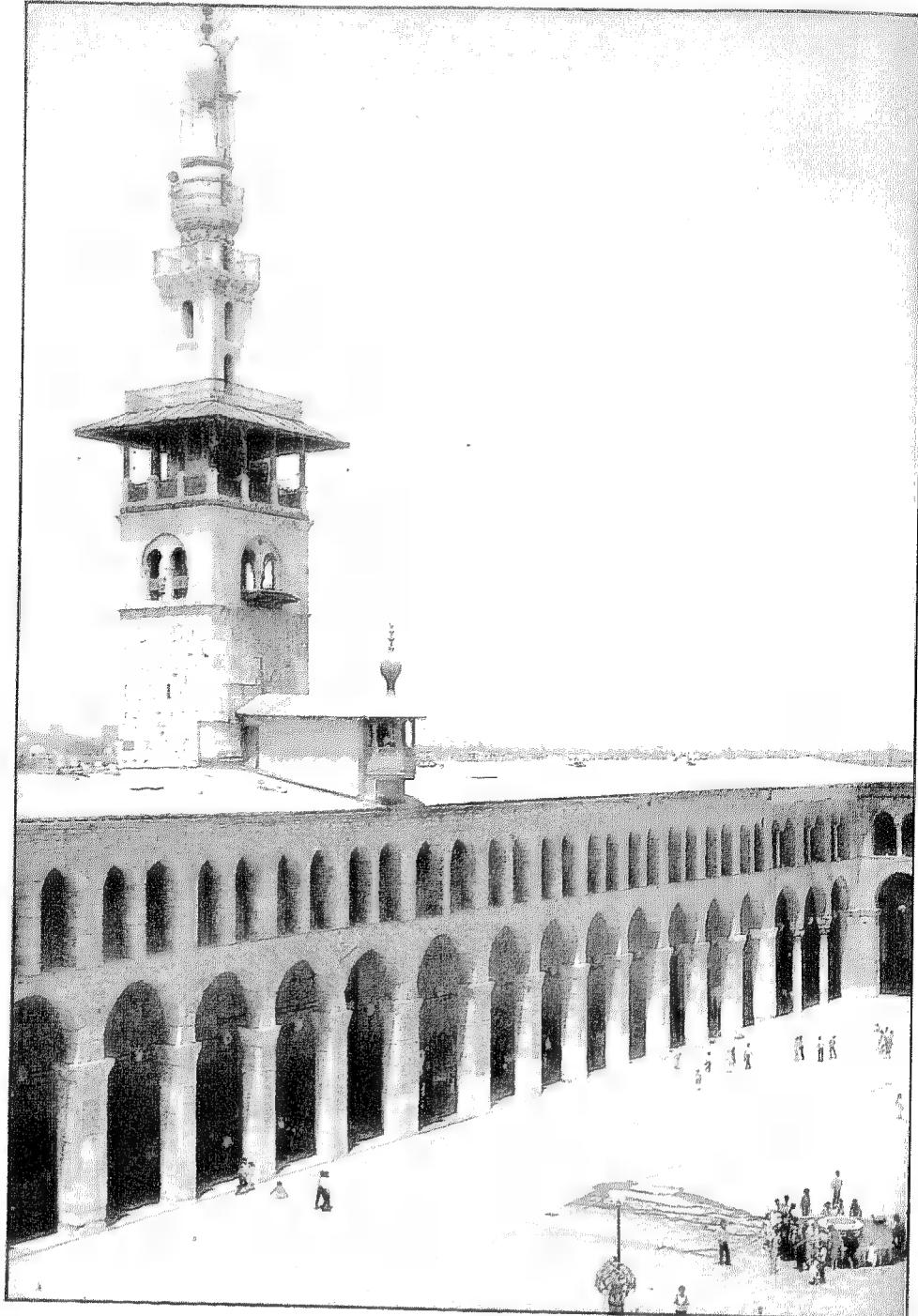
القبة الشرقية (قبة الساعات)



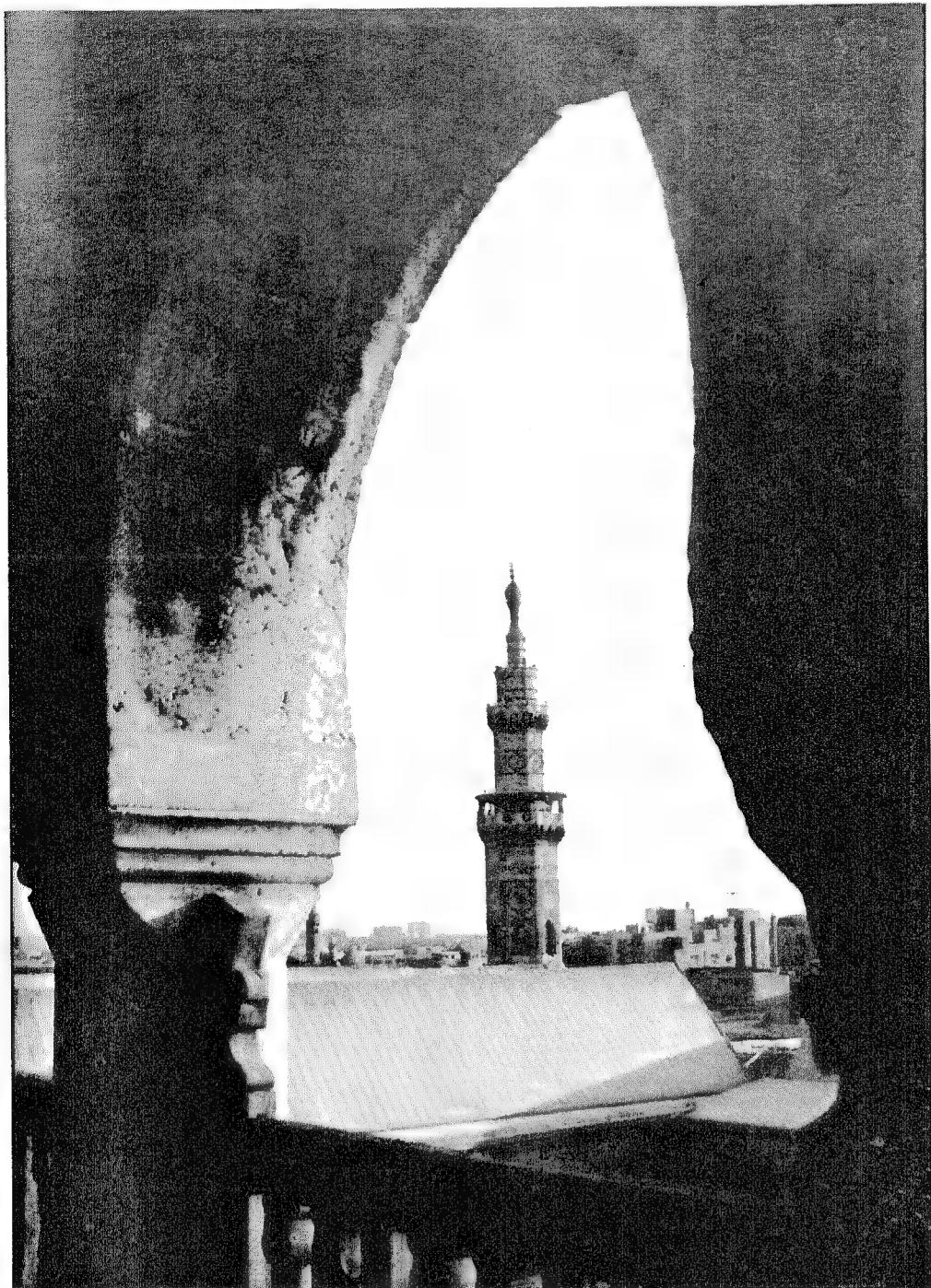
صور مصغرة للأموي



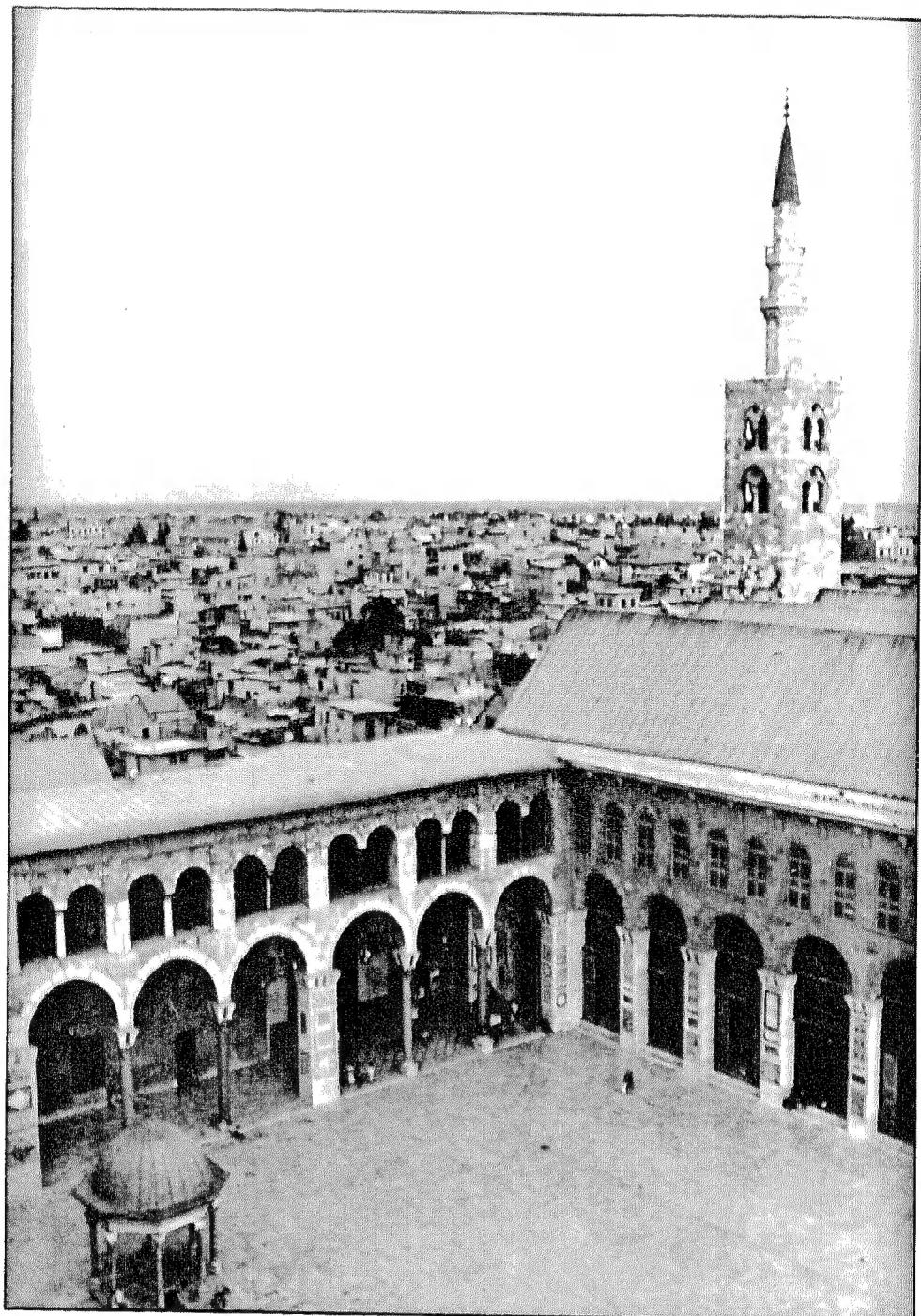
من صور الفسيفساء في الأموي



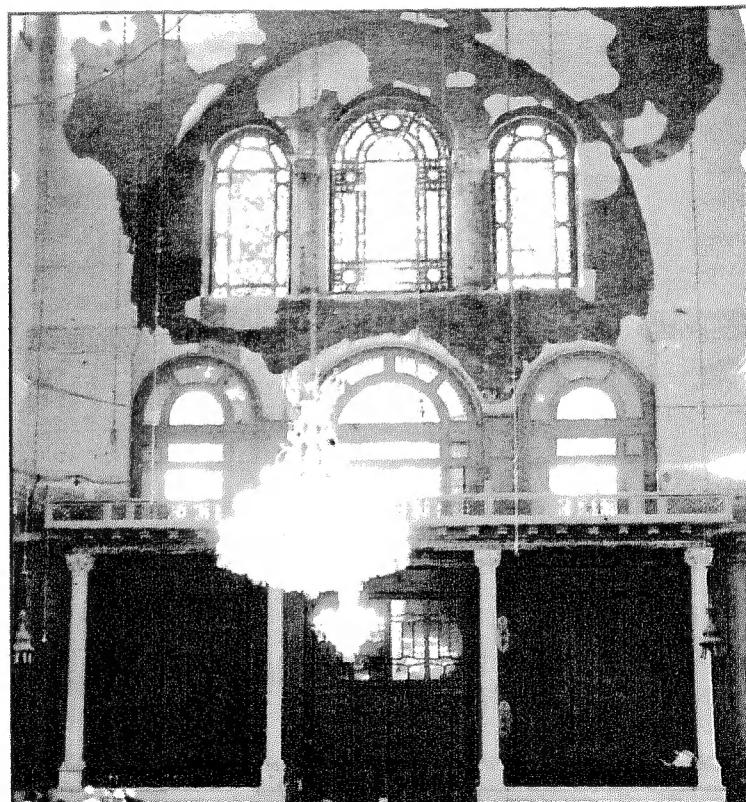
مئذنة العروس (وهي المئذنة الرئيسية) مع الرواق الشمالي



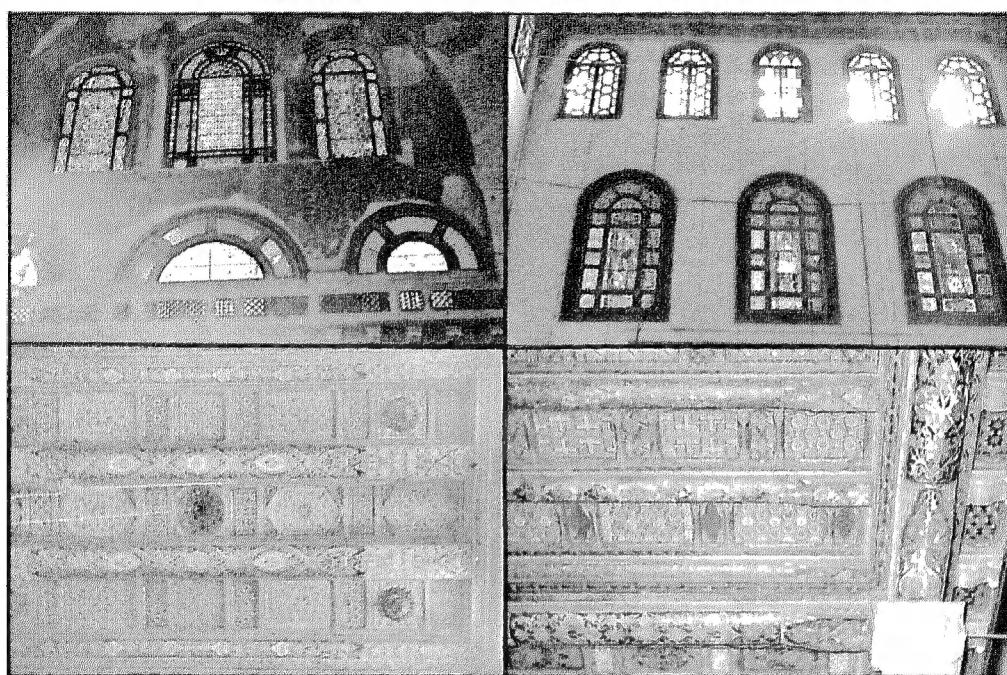
المئذنة الغربية



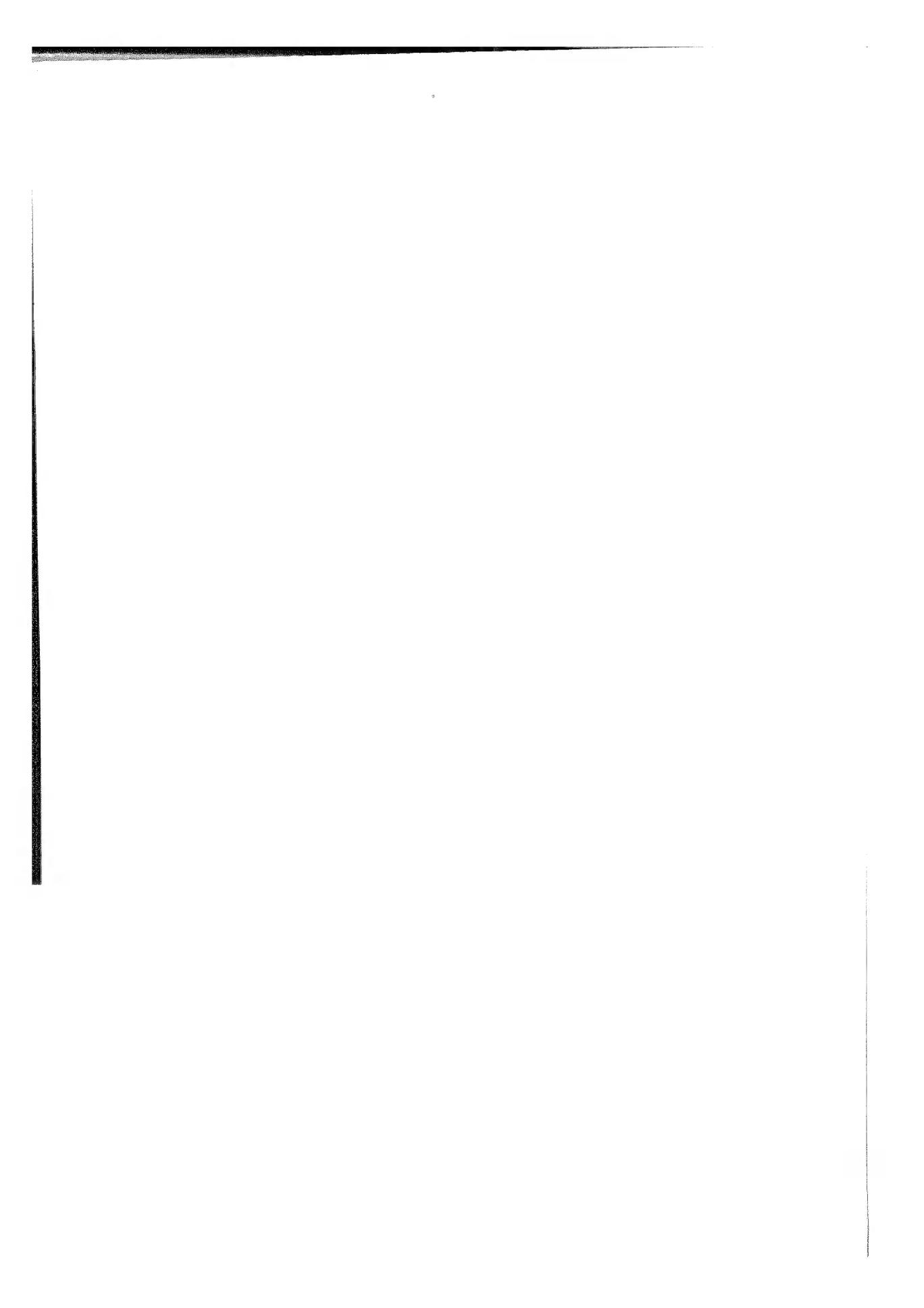
المنارة الشرقية (مئذنة عيسى)



تيجان أبواب الحرم



من نقوش السقف



طلب جميع كتاب من

ولام الملة

اللهم إذ رأيتك
روتني

جدة: ٢١٤٣١، ص. ب. ١٢٥٠، هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢

تلکس: ۶۷۰۳۰، اس. جی. عمران